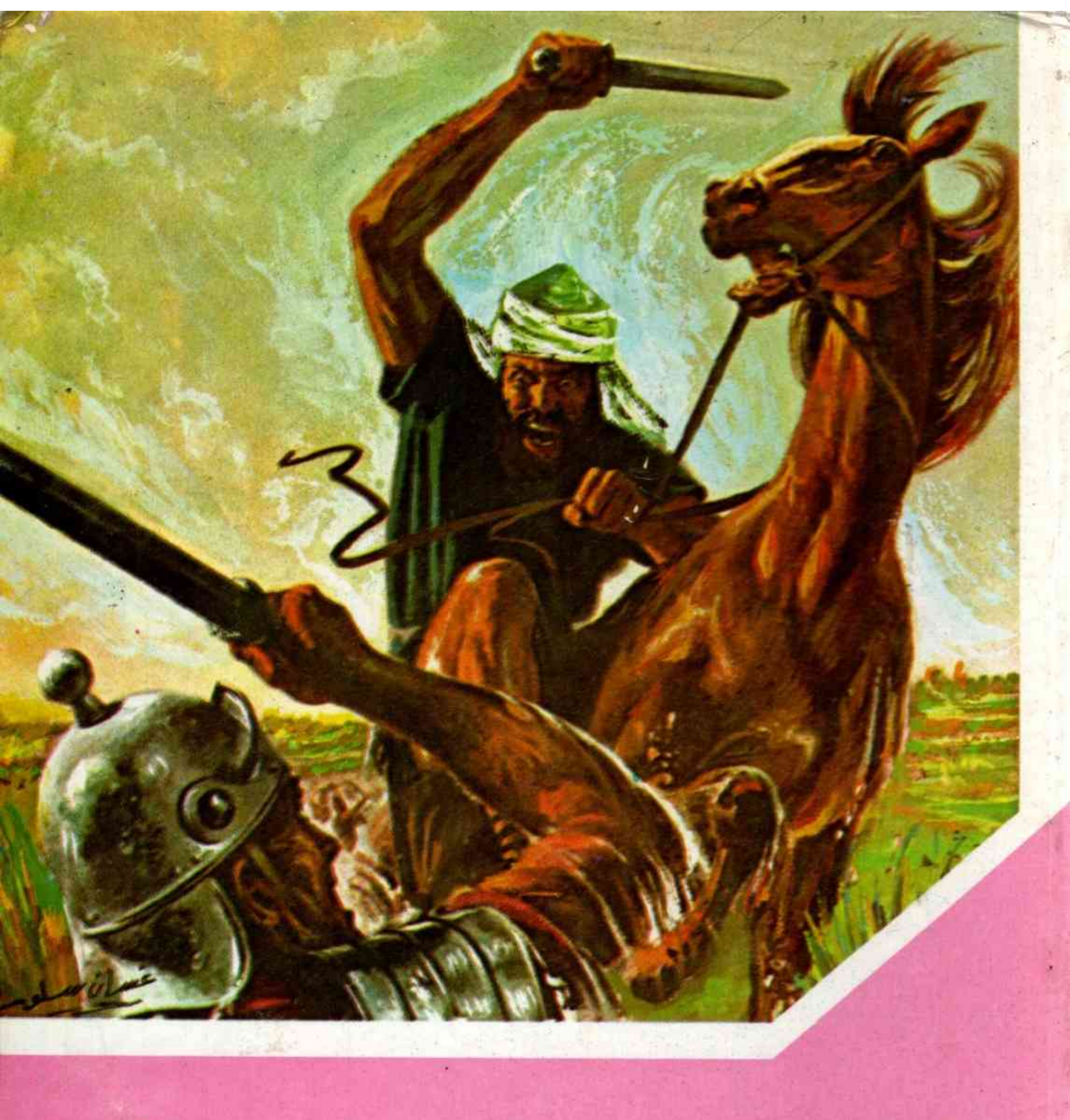


معركة ذي قار

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش

معارك حربية حاسمة

عربية وإسلامية

معركة ذي قار

١٠ ق.هـ / ٦١٢ م

الدكتور صالح الأشتر

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش

أول نصر للعرب على الفُرس

في يومٍ مِنْ أيَّام الصَّيفِ، في السَّنَةِ العاشِرَة قَبْل الهِجْرةِ، قال محمدٌ عليهِ السلامُ لأصْحابِهِ، وكان المسلمون ما يَزالونَ جَماعةً قليلةً مُسْتَضْعَفَةً في مَكَّةَ:

ـــحَدَث عظيمٌ في ذِي قارـــ! فرّ العجمُ مُنْهَزِمِيْنَ وَانْتَصَرَتْ قبائلُ بني بَكْرٍ عليهم، وطارَدُوْا فُلولَ جيوشِهِم حتّى دَخَلُوا وَرَاءهَا سَوادَ العراقِ! هذا أوّلُ يومٍ يَنْتَصِفُ فيه العَرَبُ مِنَ العَجَمِ! وَاسْتَمَعَ أصحابُ محمدٍ صلى الله عليهِ وسلم إلى النَّبأ العظيمِ في فَرْحَةٍ غَامِرةٍ، وَعمَّ البِشْرُ وجوهَهُمْ، إبتِهَاجاً

بِالنَّصْرِ العربيِّ، فقد آنَ لِصَوْتِ الحقِّ في شِبْهِ الجزيرةِ العربيَّةِ أنْ يَرْتَفِعَ، وآنَ لِلْقبائلِ المُتَفرِّقَةِ المتناحِرةِ فيها أنْ تَجْتَمِعَ وَتَغْدُوَ أمَّةً مُوَحَّدةً مَرْهُوبَةَ الجانِبِ، قَادِرَةً على أنْ تَمْنَعَ نفسَهَا، وَتَصْمُدَ لأعْدَائهَا، وَتَرُدَّ قواتِهِمُ المُعْتديةَ الغازيةَ لأرْضِهَا مَقْهُورةً مَدْحُورة!

والمسلمون اليومَ في السنةِ الثالثةِ مِنْ بِعْثَةِ النبيِّ عليهِ السلامُ فِئةٌ قَليلةٌ في مَكَّةَ، تَتَهيَّأُ لِلْجَهْرِ بدَعْوَتِهَا، وَالإسلامُ في بِدايةِ مَسيرَتِهِ الزَّاحِفَةِ يَشُقُّ طريقَهُ بالإيمانِ والصَّبْرِ، وَيَتطلَّعُ مُتَلَهِّفاً إلى مُسْتَقْبَلٍ أفْضلَ، والنبيُّ يرى في النصرِ العربيِّ على الفُرسِ بذي قارٍ إيْذَاناً بِانْتِقَالِ العربِ إلى مَرْحَلةٍ جَدِيدة مِنَ القُوَّةِ والعِزَّةِ والكَرامَةِ. وهذه الدعوةُ التي أمَرَهُ اللهُ أنْ يُجاهِرَ بها في السَّنةِ الثالثةِ مِنْ بِعْثَتِهِ النبوِيَّةِ هي

نُقطَةُ الانْطِلاقِ لِلْمَرْحَلةِ الجديدةِ المُنْتَظَرَةِ. وقد رَبَطَ النبيُّ عليهِ السلامُ بينَ النَّصْرِ العربيِّ في ذي قارٍ ودعوتِهِ التي يُبَشِّرُ بها عندما قال لأصحابِهِ:

ــهذا أوّلُ يومٍ إنتَصَفَ فيه العَرَبُ مِنَ العَجَمِ، وبِي نُصِرُوا»! وَصَدَقَ النبيُّ العربيُّ، ففي مَعْرَكةِ ذي قارٍ حَقَّقَ العربُ أوّلَ إنتصارٍ لهم على الفُرسِ، ونالُوا فيه حقَّهم منهم، والنصرُ المُؤَزَّرُ بَعْدَ ذي قارٍ سيكونُ لِلْعربِ عليهم، وسَتَتَوالى هزائمُ الفُرسِ أمامَ الجيوشِ العَرَبيَّةِ الإسلاميَّةِ، في السَّنَواتِ القَريبةِ القَادِمةِ، حتّى يَتِمَّ القَضَاء على عَرْشِ الساسانِيِّين (ملوكِ الفُرسِ) وَدَوْلَتِهِم.

والنَّصْرُ في ذي قارٍ نصرٌ عربٌي على واحدة من دولتين، هما دولَتا الفُرْسِ والرُّوْمِ، وكانتا أقوى دَوْلَتينِ في الأرْضِ المَعْمُوْرَةِ يومَذاكَ، وكانتا

تَقْتَسِمَانِ السيْطَرَةَ والنُّفُوذَ على أهَمِّ البقاعِ المَسْكُونَةِ فيها، وكانتِ الجزيرةُ العربِيَّةُ واحدةً مِنْ تلك البقاعِ، وكانتِ القبائلُ العربيةُ المجاورةُ لإحداهُمَا تَخْضَعُ لها، وتُؤَمِّنُ حمايةَ حُدودِهَا، وَتَتَكَفَّلُ بحراسَةِ قوافِلِها التجارِيَّةِ، وقد أقَامَتْ كُلٌّ مِنَ الدولتين على حُدودِهَا المُجَاوِرَةِ مملكةً عربيةً صغيرةً، بَسَطَتْ عليها حِمَايَتَهَا، لِتَجْعَلَ منها حارساً على حدودِهَا الصحراوِيَّةِ مِنْ غاراتِ البَدْوِ الرُّحَّلِ وغَزْوِهِم: فَلِلْرُومِ مَمْلكةُ الغَسَاسِنةِ على مَشَارِفِ الشَّامِ، وَلِلْفُرْسِ مَمْلكةُ المَنَاذِرةِ اللخميّين على مَشَارِفِ العراقِ، في مدينةِ الحِيرةِ القائمَةِ على ضِفَّةِ الفُراتِ الغَربيّةِ! وكانتِ اليَمَنُ في جنوبيّ الجزيرةِ العربيّةِ تَحْتَ الحُكْمِ الفَارِسيّ أيضاً، وكان كِسرى بَعَثَ جيشاً لِيَطردَ الأحْباشَ منها، ثُمَّ أقامَ عليها الوُلاَةَ مِنَ

الفُرْسِ، يَحْكُمُونَ اليَمَنَ حُكْماً مُباشَراً، وقد أدْرَكَ الإسلامُ آخِرَهُمْ.

وكانتْ قوافلُ التِّجارةِ الفَارِسيّةِ تَقْطَعُ الطَّرِيقَ عَبْرَ الجزيرةِ العربيةِ، مِنَ (المَدَائِنِ) عَاصِمَةِ الفُرْسِ إلى اليَمَنِ، ذَاهِبةً آيبَةً وتحرُسُهَا القبائلُ العربيةُ التي تمرُّ القَوافلُ في أراضيها، وَتَنالُ على الحِرَاسَةِ أجْرَها، فإذا تعرَّضَتْ بعضُ القوافلِ الفَارِسِيّةِ حيناً لِلْنَهْبِ والسَّرِقةِ أرْسَلَ كِسْرَى جيشاً مِنْ جُنْدِهِ «الأسَاوِرَةِ» وهم مِنَ الفُرْسَانِ الذينَ يُجِيدُونَ الرميَ بِالسِّهَامِ، لِيُطَارِدُوا النَّاهِبِين ويَبْطِشُوا بهم، وَيَفْتِكُوا بِالقبائلِ التي تُؤوِيْهِم أو تَحْمِيْهِم، ولهذا كان لِلأساوِرَةِ الفُرسِ في القبائلِ العربيةِ كلِّها هَيْبَةٌ وَخَشْيَةٌ، وكان لِلفُرْسِ على العَرَبِ اسْتِعْلاء القُوّةِ الغالبةِ وبطشُها وفتكُها!

وآخرُ ما كانتْ ذَاكِرةُ العربِ تَعِيْهِ مِنْ فَتْكِ الفُرسِ ببَعْضِ قَبائِلِهم، تلك الروايةُ التي يَتَنَاقَلُونَهَا عن مَذْبَحَةِ «يوم ِ الصّفْقَةِ» وقد أصابَ الفُرْسُ فيها قبائلَ بني تَمِيم بِشَرٍّ عظيمٍ: حين اسْتَدْرَجَ الفُرسُ رجالَ بني تميمٍ إلى حصن المُشقَّر، وفتكوا بِهِم فَتْكاً ذريعاً غادِراً، إنتقامَاً مِنَ القَبيلةِ كُلِّها، وكان رجالٌ من تميمٍ سَاءهُم أنْ يستغنيَ الفُرْسُ عَنْ حِراسَتِهِم لِلقَوافلِ وهي تَعْبُرُ أراضيَهُم، فَغَضِبُوا وهاجَمُوا إحْداها، وَانْتَهَبُوا ما تحمِلُهُ، وقتلُوا بعضَ الجُنْدِ مِنَ الفُرسِ المُرَافِقِينَ لها، وَأَسَرُوا بعضَهُم؛ فَأَرْسَلَ كِسْرى أسَاوِرَتَهُ، فَاحْتَالُوا على القبيلةِ، وَانْتَقَمُوا مِنْ رِجالِهَا شَرَّ انتقامٍ، وظلَّتْ أصْداءُ هذا اليوم ِ العَصيبِ مَاثِلَةً في النَّفْسِ العربيّةِ، تُثيرُ فيها النقْمَةَ والحزنَ، وتَهيجُ الذكرياتِ المُرَّةَ المُماثلةَ، حتّى كانت

معركةُ ذي قار، وأتيحَ فيها لِقبائلِ بكرِ بنِ وَائلٍ أنْ تَنْتَقِمَ مِنَ الفُرْسِ، وتُحرزَ أولَ إنتصارٍ لِلْعربِ عليهم، وبذلك إنتصفَ العربُ مِنَ العَجَمِ لأولِ مَرَّةٍ، وهذا ما شَهِدَ به النبيُّ العربيُّ عليهِ السَّلامُ، وهو يَنْقُلُ إلى أصحابِهِ في مكَّةَ أخبارَ النَّصْرِ العربيِّ الأوَّلِ على الفُرْسِ في ذي قار.

إنَّ لِمَعْرَكةِ ذي قار أهمِّيَتَها الكبيرةَ في تاريخِ أمَّتِنَا العربيةِ، وفي هذا الكتابِ محاولةٌ مُتَواضعةٌ لِجَلاء أهَمِّيةِ المعركةِ، وخطرِ ما تمخَّضَتْ عنه مِنْ نتائجَ؛ وَسَيُدْرِكُ القارىء العزيزُ أنّنا لمْ نُبالغْ في تقديرِ أهميةِ المعركةِ وخطرِهَا، عندما جعلْنَا منها الحَلْقَةَ الأولى في سِلْسِلَةِ مَعَارِكِ أمَّتِنَا المجيدةِ.

كان النَّصْرُ العربيُّ في ذي قار ــ كما سنرى ــ بدايةً تَحْمِلُ في ثناياها أكثرَ مِنْ دلالةٍ، فَلْنحاولْ أنْ

نقَّدمَ لِلناشئةِ العربيّةِ الناهِضَةِ صورة ً حيّةً ومُبسَّطةً لِلمَعْركةِ، مِنْ أبْعدِ جذورِها إلى نهايتِها، نَرْصُدُ فيها مشاهدَ بطولاتِهَا، ونُحلِّلُ وقائعَها، ونستخلصُ منها دَواعيَ النصرِ وأسبابَ الغَلَبةِ، لِنَتمكَّنَ من وَعْيِ الدلالاتِ الكثيرةِ التي تكشَّفَ عنها النصرُ العربيُّ العظيمُ الأولُ، في تاريخ أمتِنا العامِرةِ بالبطولاتِ الحربيَّةِ والأمجادِ.

لِنَعُدْ ـ إذاً ـ إلى جُذورِ المعركةِ، لِلْبحثِ عَنِ الأسبابِ التي أدَّتْ إلى نُشوبِها.

مأساةُ شاعر

عند العودةِ إلى الجذورِ لِلْبحثِ عَنِ الأسبابِ التي أدّتْ إلى وُقوعِ معركةِ ذي قار بينَ الفُرسِ والعَرَبِ، تُطالِعُنَا مأساةٌ حَزينةٌ خُتِمَتْ بها حياةُ شاعرٍ عربيٍّ جاهليٍّ، هو عديُّ بنُ زيدٍ العِباديُّ، وكانَ رجلاً مُثقَّفاً يُجيدُ اللغتين: العربيَّةَ والفارسيَّةَ، ويُعَدُّ مِنْ أفْصحِ النّاسِ وأكتَبِهِمْ باللغتين معاً، وهو من أسْرَةٍ عربيةٍ نَصْرانيَّةٍ، تَقْطُنُ مدينةَ (الحِيرةَ)، ولها صِلاتٌ كثيرةٌ ببعضِ الدَهاقِنَةِ والمرازِبَةِ مِنَ الفُرْسِ (من الرؤساء والأشراف)، مِمَّا يَسَّرَ لأفرادِ الأسْرةِ أنْ يتعلَّمُوا الفارسيَّةَ، وأنْ يتولوا أعْمالاً

لِكِسْرى في دِيوانِهِ، ومنذ شَبَّ عَدِيٌّ وظهرتْ مَوَاهِبُهُ أَلْحَقَهُ كِسْرى بِخدمتِهِ، فكان أوّلَ مَنْ كَتَبَ بالعربيةِ في ديوانِهِ، كما كان يُترجِمُ له إذا وَفَدَ عليه زُعماء العربِ ورؤساؤهم.

كان عَدِيٌّ مِنْ أظْرفِ النّاسِ وأذكاهُم، وكان جميلَ الصورةِفائقَ الحُسْنِ، وكان شاعراً جيّاشَ العاطفةِ رقيق الوجدانِ، وقد تمكّن بِمواهِبه وذكائهِ مِنْ أنْ يَشُقَّ لِنفسِهِ الطريقَ، فغدا مِنْ أقْرَبِ رجالِ الدولةِ في الدّيوانِ إلى قَلْبِ كِسْرَى، وعُدَّ مِنْ خاصةِ حاشيَتِهِ، يُقرِّبُهُ ويُدنيه من مجلسِهِ، حتّى عُرِفَتْ مكانتُهُ وَارْتَفعَ ذكرُهُ في (المدائِنِ) عاصمةِ الدولةِ الساسانِيَّةِ. وكان عَدِيٌّ لِمَكانتِهِ في الديوانِ الملكيِّ الفارسيِّ ذا مكانَةٍ في الحيرة، كما كان لآل عَدِيٍّ مقامٌ عالٍ عندَ أهلِ الحيرة، ولو أرادَ عَدِيٌّ لِمَكانتِهِ

ونُبلِهِ أنْ يُمَلِّكوه لَفعلوا، لولا وفاء آلِ عَدِيٍّ لِلأسرةِ الحاكمةِ مِنَ المَناذِرَةِ اللخميين، وَهُمُ الذين ربّوا في حِجْرِهِمُ النعمانَ أحدَ أولادِ المُنذرِ اللخمي، ولولا أنَّ عَدِياً نفسَهُ كان يُؤثِرُ الصيدَ واللهوَ واللعبَ على المُلْكِ، متنقّلاً بين نجد والحِيرةِ والمَدائِنِ، سعيداً بحياتِهِ اللاهِيَةِ، حتّى تزَوَّجَ هِنْداً (بنتَ النعمانِ بنِ المنذرِ أو أخته) وكانتْ يومَ زُفَّتْ إليه فتاةً صغيرةً تُقارب سنَّ البلوغ!

وعندما مات المُنذرُ اللخميُّ، وطلب كِسْرَى أبناءه لِيختارَ واحداً منهم يُمَلِّكُه على الحِيرة مكانَ أبيهِ، بَذَلَ عديٌّ أكبرَ جُهدِهِ لِيقَعَ اختيارُ كِسْرَى على النعمانِ الذي كان رَبِيْبَاً في آلِ عَدِيٍّ، والذي أصْهَر إليه عَدِيٌّ بِالزَّواجِ مِنْ هِنْدٍ؛ فلمّا تَمَّ إختيارُ النعمانِ غَضِبَ الأسودُ أخوهُ، وغضبَ معه بنو

مَرِيْنا ، وهم قبيلةٌ من قبائل الحِيرةِ العِباديين ، وكانوا يُؤثِرُوْنَ تَمليكَ الأسودِ بن المنذرِ، لأنّه رُبّي في حِجْرهم ، فَأَضْمَرُوا الضَّغِينَةَ لِعديٍّ ، وعزموا على أنْ يكيدوا له كُلَّ كيدٍ عندَ النعمانِ، لِيُغيّروا قلبَهُ عليه ، وحرّضوا الأسودَ أخا النعمانِ لِيثأرَ من عَدِيٍّ ، و يُعِينَهُمُ على الكَيدِ له، وراحَ ابنُ مَرِيْنا يتقرَّبُ إلى النعمانِ بالهَدايا الكثيرةِ ــمن مالِهِ ومال الأسودِــ حتّى أصبحَ قريباً مِنَ النعمانِ، فصارَ يَدُسُّ على عَدِي بنِ زيدٍ لديه، و يدفَعُ مَنْ يُحيطونَ بالنعمانِ مِنْ أصحابِهِ ، لِيَشْهَدوا عندَهُ بأنَّ عَدِياً فيه مكرٌ وخديعةٌ ، وأنَّهُ يَزْعُمُ أنّه هو الذي وَلّى النعمانَ المُلكَ ... ولم يزالوا به حتّى شَحَنوا صدرَهُ ضَغيْنَةً وحِقْداً على عَدِيٍّ ، وزوَّرُوا على لسانِهِ كتاباً أوصلوه إليه ، فاشتدَّ غضبُهُ عليه ، وَأزْمَعَ أنْ يُوقِعَ به و ينتقِمَ منه ، وكَتَبَ

إلى عَدِيٍّ بالمدائن يَستزيرُه:

«عَزَمْتُ عليكَ إلاّ زُرتَني، فإنّي قد إشتقْتُ إلى رُؤيَتِكَ». فاستأذنَ عَدِيٌّ كِسْرَى لِزيارةِ الحيرةِ فأذِنَ له، فلمّا أتى النعمانَ أمَرَ بِطَرحِهِ في حَبْسٍ لا يَدْخُلُ عليه فيه أحَدٌ، وبدأتْ فصولُ تلك المأساةِ الحزينةِ...

وحِكايةُ المأساةِ مُفصّلةٌ في أشعارِ عَدِيٍّ، وقد قالها في حَبْسِهِ، يُذكّر فيها النعمانَ بِمَا بَذَلَ في سبيلِهِ حتّى مَكَّنَهُ مِنَ الفوزِ بِالتّاجِ، دونَ إخْوتِهِ مِنْ أبناء أبيهِ، فكان الجزاء على الإِحسانِ عجيباً: يُلقَى به في الحَبْسِ رهينَ السلاسِلِ والقيودِ والأغْلالِ.

وتوالَتْ قَصائدُ الشاعرِ الحزينةُ، في تذكيرِ النُعمانِ بِجُهوْدِهِ، وَبِصِلَةِ المُصاهَرَةِ التي تَجْمعُهُ

بِهِ، والنعمانُ لا يَلْتفِتُ إلى صَرَخَاتِهِ، حتّى أدركَهُ اليأسُ، فراحَ يكتبُ الشعرَ إلى بَعضِ إخوتِهِ بالمدائن، لِينْقُلَ إلى كِسْرَى نَبأَ اعْتِقالِهِ؛ فكتب كِسْرَى إلى النعمانِ يَأمُرُهُ بِإطْلاقِهِ، وبَعَثَ مع أخيهِ رجلاً بكتابِهِ إلى النعمانِ، فلمّا وَصَلَ رسولُ كِسْرَى إلى الحيرةِ بدأ بزِيارةِ عَدِيٍّ في سجنِهِ، فَطَلَبَ عَدِيٌّ منه أنْ يَبْقى مَعَهُ، وَأنْ يُرْسِلَ أحَداً بالكتابِ إلى النعمانِ، لِيَضْمَنَ ببقائِهِ معه سلامتَهُ، فأبىٰ الرسولُ إلاّ أنْ يُوصِلَ الكتابَ بنفسِهِ، فَأيْقَنَ عَدِيٌّ بِالْهَلاكِ العاجِلِ، وكان ما توقّعه، فقد بَلَغَ الخبرُ النعمانَ قَبْلَ وصولِ رسولِ كسرى إليهِ، وَأدرَكَ أنّهُ إنْ يُطلقْ سَرَاحَ عَدِيٍّ بَعْدَ سَجْنِهِ وتعذيبِهِ إيّاهُ ليكونَنَّ أكْبَرَ عدوٍّ له في الديوان الملكي في المدائن، فبعثَ إليه مَنْ خَنَقَهُ وَدَفَنَهُ، وَوَصَلَ رسولُ كِسْرَى بكتابِهِ، فأكرمَهُ

النعمانُ وَأظـهْرَ استعدادَهُ لِتَنْفِيذِ الأمرِ، وذهبَ الرسولُ إلى السجنِ، فَأعْلَمَهُ حُرَّاسُهُ أنَّ عَدِياً قد ماتَ منذ أيامٍ! فارتدَّ إلى النعمانِ غاضباً مُتوعِداً، ولكنَّ النعمانَ عرفَ كيفَ يرشاه، فَضَمِنَ صَمْتَه وشهدَ بأنَّ عَدِياً ماتَ قَبْلَ وصولِهِ إلى النعمانِ بكتابِ كسرى!

تِلْكَ هي مأساةُ الشاعرِ الجاهليِّ عَدِيِّ بنِ زيدٍ...

مات مَخْنوقاً في سِجْنِ النعمانِ بنِ المُنْذِرِ، ولمْ يُغْنِ عنه وَفاؤهُ له. وَ بَذْلُهُ الجُهْدَ لِيَجْعَلَهُ يَفُوزُ بِالمُلْكِ مِنْ دونِ إخوتِهِ مِنْ أبناء المُنْذِرِ جميعاً...

مات عَدِيٌّ ضَحِيَّةَ الدسائسِ والكيدِ، فَفَقَدَ النعمانُ بموتِهِ أكبرَ سَنَدٍ له في البَلاطِ الفَارِسِيِّ،

وسيُدْرِكُ النعمانُ عاجِلاً مبلغَ خسارتِهِ بِمَصْرَعِ عَدِيِّ ابنِ زيدٍ، وسيكونُ ندمُهُ لِذلكَ عظيماً...

ومأساةُ الشاعرِ عَدِيّ بدايةٌ لأحْداثٍ كبيرةٍ، تتوالى حلقاتُهَا، لِتُفضي إلى وقوعِ مَعْركةِ ذي قار، وَمَصْرَعُ عَدِيٍّ في سجنِ النعمانِ مقدمةٌ لِمصرعِ النعمانِ نفسِهِ في سِجْنِ كِسْرَى...

فَلْنتابعِ السيرَ مَعَ الأحداثِ المُتواليَةِ حلقةً حلقةً...

مصرع النعمان بن المنذر

بَعْدَ مَقْتلِ عَدِيِّ بنِ زيدٍ أدركَ النعمانُ خطأهُ، وعرفَ أنّ أعداءهُ إحتالوا عليه في أمرِهِ، فدفعوه إلى الفَتْكِ بأخْلَصِ مُناصِريهِ، لِيَخْسَرَ بفقدِهِ إياه أكبرَ سندٍ له في الدّيوانِ المَلكيِّ في المدائن؛ و بعد مَصْرَعِهِ أصبحَ أعداء النعمانِ يَجترئونَ عليه، وَ يَكيدُونَ له جَهْرَةً، وهو لا يملك إلاّ أنْ يَهابَهُم، نادِمَاً على ما فعل!

وخرج النعمانُ ذاتَ يومٍ إلى الصَّيْدِ، فلقي إبناً لِعَدِيٍّ، فَلَمّا رآه عرفَ فيه مشابهَ مِنْ أبيهِ، فسأله:

— مَنْ أنْتَ؟

— أبيتَ اللّعْنَ (وهي تحيةُ الملوكِ في الجاهليّةِ) أنا

زيدُ بنُ عديِّ بنِ زيدٍ!

فكلّمه، فإذا غلامٌ ظريفٌ ذكيٌّ ففرح به وقرَّبه منه، وغمره بصلاتِهِ وعطاياه، وقد استراحَتْ نفسُهُ إلى الإحسان إليه، للتكفيرِ عمّا كان منه نحوَ أبيهِ، وكان زيدٌ شاباً ورِثَ عن أبيه الظُّرْفَ والحُسْنَ الفائقَ والذكاءَ اللمّاحَ، وكان ـ كآلِ عَدِيٍّ جميعاً ـ يجمعُ الثقافتين العربيةَ والفارسيةَ، وهو بذلك جديرٌ بأَنْ ينهضَ بِعَمَلِ أبيهِ في الديوانِ الملكيِّ الفارسيِّ ولهذا بادر النعمانُ إلى تجهيزِهِ، وسيَّرَهُ إلى المدائن، وزوَّدَهُ بكتابِ توصيةٍ إلى كسرى يقول فيه:

«إنَّ عَدِياً كان مِمَّن أعينَ به المَلِكُ في نُصْحِهِ وَلُبِّهِ، (عقله) فأصابَهُ ما لا بُدَّ منه، (الموتُ) وانقطعتْ مُدّتُهُ، وانقضى أجلُه، ولم يُصَبْ به أحَدٌ أشدَّ مِنْ مُصِيْبَتِي، وأمَّا المَلِكُ فلمْ يكنْ لِيَفْقِدَ رجلاً

إلاَّ جعلَ اللهُ له منه خَلَفاً، لِمَا عظَّمَ اللهُ مِنْ مُلْكِهِ وشَأنِهِ، وقد بَلَغَ ابنٌ له ليس بِدونِهِ (بأقلَّ منه) رأيتُه يَصْلحُ لخدمةِ المَلِكِ، فَسَرَّحتُه إليهِ (بعثت به)، فَإنْ رأى الملكُ أنْ يَجْعلهُ مكانَ أبيه فَلْيَفْعَلْ، وَلْيَصْرِفْ عَمَّهُ إلى عملٍ آخرَ!».

وهكذا حَلَّ زَيدٌ مَحلَّ أبيه، بترشيحٍ مِنَ النعمانِ قاتِلِ أبيه، وَاْستَطاعَ الشَّابُ الموهوبُ أنْ يَنالَ ثِقَةَ كِسْرَى وَإعْجابَهُ، وَأنْ يحتلَّ في البَلاطِ الفارِسيِّ المَنْزِلةَ التي كانت لأ بيهِ عَدِيٍّ قَبْلَهُ، فكان يُكثِرُ الدخولَ على كِسْرَى، وَ يَتَفانى في خِدْمَتِهِ، وكان إذا سُئلَ عَنِ النعمانِ يُحْسِنُ الثناء عليه، وهو يترقَّبُ الفُرصةَ المُواتيَةَ لِلإنتقامِ لأ بيه منه.

وجاءتِ الفُرصةُ المُنتَظَرةُ بَعْدَ طُوْلِ تَرَقُّبٍ!

إحتاجَ كسرى وَبَعْضُ أوْلادِهِ وأهلِ بيتِهِ إلى

الزّواجِ، وكان ملوكُ الفرسِ يتطلّبون النساء الجميلاتِ الحسانَ، و يشترطون صفات فيهن، فأمر كِسْرى بالكتابةِ إلى أرْجاء مملكتِهِ لِلْبَحثِ عَنْهُنَّ، ودخل زيدُ بنُ عَدِيّ عليه وقال:

ــ قرأتُ يا مولاي الصفاتِ المطلوبة في النساء، وأنا بآل المُنذرِ عارِفٌ، وعند عبدِكَ النعمانِ في الحيرةِ مِنْ بناتِهِ وأخواتِهِ و بناتِ عمِّهِ وأهلِهِ أكثرُ مِنْ عشرين إمرأة على هذه الصفاتِ!

ــ ما كُنّا نَحْسبُ أنّ في أرضِ العربِ ما نُريدُ، ولا أنّ عند أحَدٍ منهم ما نطلُبُ، وَلَئِنْ كان الأمرُ ما تقولُ، فاكتبْ إلى النعمانِ فيهنَّ!

ــ ولكنَّ العربَ ــ أيُّها الملكُ ــ والنعمانُ بِخاصَّةٍ لا يقبلون هذا بِيُسرٍ و يرون فيه غضاضةً، وهذا شرُّ شيء فيهم!

ــ ولكنَّ النعمانَ لا يملك أنْ يأبىٰ إكرامنا له بإصهارنا إليه!

ــ حتماً، ولكنّي أكْرَهُ ــ أيُّها الملكُ ــ أنْ يُخفيَ النعمانُ عن رسولِكَ ما تطلبُ، أو أنْ يَعْرِضَ عليه نِسْوةً مِنْ غيرِ أهلِهِ، وإنْ قدمتُ أنا عليه لم يَقْدِرْ على ذلك لِمعرفتي بِهِنَّ، فابعثني إليه، وَابْعَثْ معي رجلاً مِنْ ثقاتِكَ يَفْهَمُ العربيَّةَ حتّى أبْلغَ ما تُحبُّه، وأعودَ إليكَ بما تُريدُ!

وجاء زيدُ بنُ عَدِيٍّ إلى الحيرة، ومعه رسولُ كِسْرَى، فلمّا دَخَلَ علىٰ النعمانِ قال له:

ــ أبَيْتَ اللَّعنَ، إنّي رسولُ كِسْرَى إليكَ، وقد احتاجَ إلى نساء، لِنفسِهِ وَلولدِهِ و بعضِ أهلِ بيتِهِ، وقد أراد إكرامَكَ بالإِصْهارِ إليكَ فَبَعَثَ إليكَ بما يُريدُ!

فقال النعمانُ:

ــ وما هؤلاء النسوةُ؟

فقرأ زيدٌ عليه الصفاتِ المطلوبةَ في كُلِّ واحدةٍ مِنْهُنَّ: «أنْ تكونَ مُعتدلةَ الخَلْقِ والتكوينِ، نَقِيَّةَ اللونِ والثغرِ بيضاء حوراء (الحور شدة سواد العين وشدة بياضها) عَيْناء (واسعة العينين) أسيلةَ الخدِّ (ليّن أملس) شهيّةَ المُقَبَّل (يُشتهى تقبيل ثغرها) كثيفةَ الشعرِ، عظيمةَ الهامةِ (كبيرة الرأس) بعيدةَ مهوى القُرطِ (طويلة العنق) عريضةَ الصدرِ، كاعبَ الثدي (ناهدته) ضامرةَ البطن. خميصةَ الخصْرِ (رشيقته) رَيَّا الروادفِ (ممتلئة) إلخ...» وعندما سَمِعَ النعمانُ هذه الصفاتِ شقَّ الأمرُ عليه وصعُب، وقال لِزيدٍ والرسولُ يَسْمعُ:

ــ أمَا في مها السَّوادِ وعينِ فَارسَ ما يبلغُ بِهِ كسرى حاجتَهُ!

فقال الرسولُ لِزيدٍ بالفارسية:

ــ ما المها وما العين؟

فأجاب زيدٌ بِالفارسيّةِ أيضاً:

ــ كاوان (أي البقر، والمها والعين من بَقَرِ الوحشِ صِنْفٌ من الغزلان، لها عيونٌ حُورٌ واسعةٌ جميلةٌ، والعربُ يُشبّهون النساء الجميلاتِ ببقرِ الوحشِ لِذلكَ).

فأمسكَ الرسولُ، وقال زيدٌ لِلنعمانِ:

ــ أبَيْتَ اللعْنَ، إنَّمَا أرادَ كِسْرَى كَرامتَكَ، ولو عَلِمَ أنّ هذا يَشُقُّ عليكَ لمْ يكتبْ إليكَ بِهِ...

وأقام زيدٌ ورفيقُهُ يومينِ في ضيافةِ النعمانِ، وعندما أستَأذَنَهُ لِلرَّحِيلِ قال له النعمانُ:

ــ الْتَمِسْ لنا عُذْرَاً يا زيدُ عند المَلِكِ! فأنت تعرفُ ما على العربِ في تزويج العَجَمِ مِنَ الغَضَاضَةِ والشَّنَاعَةِ!

وكتبَ النعمانُ إلى كِسْرَى:

«إنّ الذي طَلَبَ المَلِكُ ليس عندي!».

وَلمّا رَجَعَ زيدٌ والرسولُ إلى المدائن، وقرأ على كسرى كتابَ النعمانِ إليه، سَألَ زيداً:

— ليس عنده طلبي، فأيْنَ الذي كنتُ خبّرتَني بِهِ؟

فأجابَ زيدٌ:

— قد كنتُ خبَّرتُكَ — أيُّها الملكُ — أنَّهُمْ يَضِنُّونَ بِنِسَائِهِمْ على غيرهم، وما ذاكَ إلاَّ مِنْ شَقَائِهِمْ وإختيارِهِمُ الجوعَ والعُرْيَ على الشِّبعِ والرِّياشِ، وإيثارِهِم رياحَ أرضِهِم السَّموم (المُحْرِقَةِ) على طيبِ أرضِكَ هذه، حتّى إنَّهُمْ لَيُسمّونها السجنَ، وَسَل هذا الرسولَ عَمّا قال ليَ النعمانُ، فإني أكرِمُ المَلِكَ عن نقلِ ما قال!

وما قال لك ويحك!

فأجاب الرسولُ:

ـ أيها الملك، إن قال: أما كان في بَقَرِ السَّوادِ وفارسَ ما يكفيه حتّى يطلُبَ ما عندنا!

فَغَضِبَ كِسْرَى غَضَباً شديداً، وقال:

ـ رُبَّ عبدٍ لنا أرادَ ما هو أشدُّ من هذا، ثم صار أمرُهُ إلى الهَلاكِ!

وشاعَ هذا الكلامُ حتّى بَلَغَ النعمانَ، فاستبدَّ بِهِ القَلَقُ، وَأيْقَنَ أنَّ زيداً يَكِيْدُ له عندَ كِسْرى، إنْتِقَاماً لأبيهِ، وَإلاَّ فهو قَدْ بَذَلَ جُهْدَهُ في إكْرامِ الرسولينِ، وَتلَطَّفَ في الجَوابِ، وَسَألَ زيداً أنْ يَلْتَمِسَ له عُذْرَاً مَقْبولاً عند كسرى يُرضِيهِ، وَزَيدٌ عربٌي يَعْرِفُ أنَّ العربَ تَعدُّ مُصَاهرةَ الأجنبيِّ عَاراً، ولو كانَ أمِيراً أو مَلِكاً، وهو يَعْرِفُ أنّ تَشْبيهَ النّساء الحِسانِ في سَوادِ العراقِ وأرضِ فارسَ وفي كُلِّ مكانٍ، بالمها هو مِنْ قَبيلِ التمثيلِ والتصويرِ، وليس فيه ما يُثير غَضَبَ كِسْرَى أو سُخْطَهُ!

وَأخَذَ النعمانُ يتوقّعُ الشرَّ و يستعدُّ له، و بعد أشْهُرٍ أتاهُ كتابٌ من كِسْرَى يدعوه إليه، فأيقن بسوء ما يضمره له، وحمل سلاحه وما قوي عليه مِنْ أمْوالِهِ، واصطحبَ أهلَهُ، وغادرَ الحيرةَ مُتخفِّياً، ولَحِقَ بقبيلةِ طيء، يَنشدُ لديها الحِمَايةَ، و يرجو أنْ يَجِدَ لدى رجالِهَا ــ وله فيهم صِهْرٌ وقُربى ــ الجوارَ والقوّة والصَوْنَ، ولكنَّهُم أبَوا حمايتَهُ، وقالوا له:

ــ لولا صِهْرُكَ لقتلناكَ، فإنّه لا حاجةَ بنا إلى مُعاداةِ كسرى، ولا طاقةَ لنا به!

فترك النعمانُ أرضَهُم، وراحَ يطوفُ على قبائلِ العربِ، ليس أحَدٌ منهم يَقْبَلُ أنْ يُجيرَهُ، أو أنْ يُقاتلَ معه، ومن رضيَ منهم بِذلكَ، مِثْلُ بني رَواحة العَبْسِيينَ لأفْضالٍ له عليهم، لمْ يُرْضِهِ أنْ يُعرِّضَهُم لِعَداوةِ كسرى وإنتقامِهِ، وهو يعرِفُ أنَّه لا طاقة لهم به!

ثُمَّ أقْبلَ النعمانُ حتّى نزلَ في ذي قار، وهو ماءٌ لِبكرِ بنِ وائلٍ، قريبٌ مِنْ موضعِ الكوفةِ، وأقامَ في بَطْنٍ مِنْ بطونِ بكرٍ، وهم بنو شيبانَ، واحتمى بهم سِرّاً، ولقيَ هانىء بنَ قبيصة بنِ مسعودٍ الشيبانيَّ، وكان سيّداً مَنِيْعاً، فَاسْتَجارَ بِهِ فَأجارهُ، وقال له ناصِحَاً:

ــ لقد أجَرتُكَ وقد لَزِمَني ذمامُكَ وحِمايتُكَ، وأنا مانِعُكَ ــ حاميك ــ مِمّا أمْنَعُ نفسي وأهْلي وَوَلَدِي منه، ما بقيَ مِنْ عشيرتيَ الأدْنينَ ــ الأقربين ــ رجلٌ، ولكنَّ ذلكَ لا ينفعُكَ، لأنّه مُهْلكي ومُهْلِكُكَ، وعندي لك رأيٌ، لستُ أشيرُ بِهِ عليكَ لأصُدَّكَ عما تُريدُ مِنْ مُجاورتي، ولكنّه الصوابُ إنْ أرَدْتَهُ!

ــ ماهو؟ هاته.

— إنَّ كُلَّ أمرٍ يَجمُلُ بالرجلِ أنْ يَصِيرَ إليهِ، إلاّ أنْ يَصيرَ بَعْدَ المُلكِ سُوْقَةً مِنْ عَامّةِ النّاسِ، والموتُ لا بُدَّ منه، وهو نازلٌ بِكُلّ أحَدٍ، وَلأنْ تموتَ كريماً خيرٌ مِنْ أنْ تتجرَّعَ الذُّلَّ أو تبقى سُوقةً بعد المُلكِ! هذا إنْ بقيتَ؛ فَامْضِ إلى صاحِبِكَ (كسرى) وَاَحْمِلْ إليه هدايا ومالاً، وألْقِ بِنَفْسِكَ بين يديه، فإنْ صَفَحَ وعفا عُدْتَ مَلِكاً عزيزاً، وإنْ لَمْ يَصْفَحْ، فالموتُ خيرٌ مِنْ أنْ تأكلَ مالكَ وتعيشَ فقيراً مُجَاوِراً أو تُقْتَلَ مَقْهُوراً!

فقال النعمانُ، وَأدْرَكَ صِدْقَ النصيحةِ:

— وما أصنعُ بأهلي؟

— أهلُكَ في ذِمَّتي، لا يَصِلُ أحَدٌ إليهم حتّى يَصِلَ إلى بناتي وأهلي!

ــ هذا وَابِيكَ الرأيُ الصحيحُ، ولن أجاوزهُ!

ثم اختارَ النعمانُ الهدايا إلى كسرى، مِنْ خَيْلٍ عَرَبيّةٍ، وَحُلَلٍ (ثياب) يَمَنِيّةٍ، وجواهرَ وطُرَفٍ كانت عندَهُ، ووجّه بها إلى كسرى، وكتب إليه يَعْتذرُ، ويُعْلِمُهُ أنّه في طريقِهِ إليه! فلمّا تَلَقّى كسرى هدايا النعمانِ قَبِلها، وبعثَ بأمْرِهِ بالقدومِ عليه، ولمْ يكشِفْ عَمّا يُخفيه في نفسِهِ نحوَهُ! وغادرَ النعمانُ بني شَيبانَ، بعد أنِ اسْتَوْدَعَ هانِئاً أهلَهُ وأسلحتَهُ، حتّى أتى المدائنَ، فلمّا دَخَلَ قصرَ كسرى، وجد صفوفاً من الجواري عليهن الثيابُ المصبّغاتُ، وقد أَحَطْنَ بِهِ، ورُحْنَ يَقُلْنَ لَهُ مُتَسائلات:

ــ أما فينا لِلملِكِ غِنًى عَنْ بَقَرِ السَّوادِ! فَعَلِمَ النعمانُ أنّه غيرُ ناجٍ، ولقيَهُ زيدُ بنُ عَدِيٍّ فقال له شامتاً:

ـــ أَنْجُ نُعيمُ إنِ استطعتَ النجاةَ! (يُصغِّر إسمه تحقيراً) فأجابه النعمانُ مُتَهَدِّداً ومُتَوَعِّداً:

ـــ أفعلتها يا زيدُ، أمَا والله لَئنْ عِشْتُ لأقْتُلَنَّكَ قتلةً لم يُقتلها عربيٌّ قطّ، ولألحقنَّكَ بأبيك!

ـــ أمضِ لِشَأنِكَ يا نُعيمُ، فقد حَفَرْتُ لكَ حُفْرَةً لا تَخْرُجُ منها أبداً، امضِ!

ومضى النعمانُ إلى بابِ كسرى، فبعثَ المَلِكُ إليه مَن قَيَّدَهُ وحمَلَهُ إلى السجنِ، حيثُ قُتل فيه صَبْراً (سُجن حتى تم قتلُه) قُبيلَ الإسلام.

وهكذا إستسلمَ النعمانُ بنُ المُنْذِرِ إلى قَدَره الدّامي، وَانْتَقَمَ زيدُ بنُ عَدِيٍّ لأبيه شرَّ انتقامٍ، ولكنَّ مصرعَ النعمان في سجنِ كسرى كان السببَ المباشرَ لِوَقعةِ ذي قار، كما سنرى .

غضبةُ العرب: بداية يقظة أمّة

أثار مصرعُ النعمانِ بنِ المُنْذِرِ في سجنِ كسرى إحساساً طاغياً بالحُزْنِ عند القبائلِ العربيةِ الضاربَةِ على مَشَارِفِ السَّوادِ، فقد كان رَفْضُ النعمانِ مُصَاهرةَ الأعاجِمِ يُمَثِّلُ موقفاً عربياً عَامّاً تُحتِّمُهُ أعرافُ العربِ وتقاليدُهُمْ، وقد غَدَرَ كِسْرَى بِهِ لِذلك، ورماهُ في سجنِهِ حتّى ماتَ أو قُتِلَ، وأمرَ بِمُصَادَرةِ أموالِهِ ومُخلّفاتِهِ.

هذا الحزنُ العربيُّ على مَصِيرِ النعمانِ عَبَّرَ عنه شُعراء القبائلِ، وهم يومَئذٍ ألسنةُ الرأيِ العامِّ في الجزيرةِ العربيةِ:

فهذا النابغةُ الذبيانيُّ الشاعرُ الجاهليُّ الكبيرُ، وكانتْ لَهُ صِلاتٌ كثيرةٌ بالنعمانِ، وإليه كان يَسوقُ قَصائدَ المدْحِ والإعتذارِ، يقولُ لمّا بلغه نَبَأ مَصْرَعِهِ: «طَلَبَهُ مِنَ الدهرِ طالبُ الملوكِ!» ثم يتمثلُ بشعرٍ حَزينٍ:

مَنْ يطلُب الدهرُ تُدرِكْه مخالبه
والدهرُ بالوِتر ناجٍ غير مطلوب
ما مِن أناسٍ ذَوي مجدٍ ومكرمة
إلاّ يَشُدُّ عليهم شدَّة الذِّيب

(الدهرُ وحشٌ مُفْتَرسٌ فإذا شاء أنْ يفترسَ أحداً إنقضّ عليه بِمخالبِهِ، ولمْ يَخْشَ أنْ يثأرَ له منه أحَدٌ، والناسُ جميعاً، ولو كان بينهم أفرادٌ حازوا الأمجادَ والمكارمَ، عُرْضةٌ لهجومِ الدّهرِ كَالذِّئبِ عليهم، لِيَفْتَرِسَهُم ويقضيَ عليهم).

وهذا شاعرٌ جاهليٌ كبيرٌ آخرُ، وهو زهيرُ بنُ أبي سُلْمَى المُزَنيُّ يرثي النعمانَ بنَ المُنْذِرِ، محاولاً أنْ يستخلِصَ العِبرةَ مِنْ مأساتِهِ، وهو يرى تنكُّرَ أصحابِهِ له، وتفرُّقَهُمْ عنه، وهو الذي كان يُغْرِقُهُمْ بِإحسانِهِ وعطاياهُ:

أَلَمْ تَرَ لِلنُّعمانِ كان بِنَجوة
مِنَ العَيْشِ لو أنَّ امرأً كان ناجياً
فَلَمْ أرَ مَسْلُوباً له مثلُ مُلكه
أقَلَّ صديقاً باذِلاً أو مُواسِياً
فَأيْنَ الذينَ كان يُعطي جياده
بِأرْسانِهِنَّ والحسان الحواليا
وَأيْنَ الذينَ يَحْضُرُوْنَ جِفانَهُ
إذا قُدِّمَتْ ألقوا عليها المراسيا
رأيتُهمُ لم يُشركوا بنفوسِهم
مَنِيَّتَهُ لمّا رأوا أنَّها هيا

(لو كان لإنسانٍ أنْ ينجوَ مِنَ الموتِ لَكان النعمانُ أجدرَ النّاسِ بِالنجاةِ، وعندما حلَّتْ به المأساةُ لمْ يقفْ إلى جانبِهِ صديقٌ يأخذُ بيدِهِ أو يواسيه، وتفرَّقَ عنه الذينَ كانوا يَنْعُمُوْنَ بِخَيراتِهِ الكثيرةِ، و يأْخُذُوْنَ هباتِهِ من الجِيادِ بأرسانِها، والنساء بزِيْنتهِنَّ، والذين كانوا يحضُرونَ مَوائدَهُ العامِرةَ، و يُلازمون القصاعَ الكبيرةَ التي يُقدَّمُ لهم فيها الطعامَ! لقد تفرّقوا عنه عندَ المحنةِ، ولمْ يشاركْهُ أحَدٌ في مُواجهةِ منيّتِهِ، عندما تبيَّنَ لهم أنّه سائرٌ حتماً إلى حَتْفِهِ).

وتحوّل الحزنُ على النعمانِ إلى مَوْجةٍ عارمةٍ مِنَ الغَضَبِ عندما أرسلَ كسرى إلى عاملِهِ الجديدِ على الحيرةِ «إياسِ بنِ قُبيصةَ الطائيِّ» يأمره أنْ يجمعَ ما خلَّفَهُ النعمانُ و يُرسلَهُ إليهِ، فبعَثَ إياسٌ إلى هانىء

الشيبانيّ يأمرُهُ أنْ يُرسلَ إليه بِكُلِّ ما أوْدَعَ النعمانُ لديه مِنَ الأسْلِحَةِ والدروعِ وغيرِهَا. وكتب إليهِ يُهدِدُهُ و يتوعَّدُهُ:

«لا تُكلِّفْني أنْ أبعثَ إليكَ ولا إلى قومِكَ بالجنودِ، تُقاتلُ المُقَاتِلَةَ (المحاربين مِنَ الرجالِ) وتسبي الذريَّةَ (الأولادَ والنَّسْلَ)».

فأجابَهُ هانِيءُ الشيبانيُّ بِكتابٍ يقولُ فيه:

«إنَّ الذي بلغَكَ باطلٌ، وما عندي قليلٌ ولا كثيرٌ، وَإنْ يكنِ الأمرُ كما قِيلَ فأنا أَحَدُ رجلين: إمّا رجلٌ استُودِعَ أمانَةً فهو حقيقٌ أنْ يُرُدَّهَا على مَنْ أوْدَعَهُ إيّاها، وليس يُسَلِّمَ الحُرُّ أمانةً! وإمّا رجلٌ مكذوبٌ عليه فليس ينبغي أنْ تأخذَهُ بقولِ عدوٍّ أو حاسِدٍ!».

وبلغ كسرى امتناعُ هانىءِ الشيبانيِّ عن تَسْلِيمِ وَدائعِ النعمانِ لديه، فَغَضِبَ وعزَمَ على اسْتِئْصَالِ قبيلتِهِ وهلاكِهَا، وغضِبَتْ بنو شيبانَ، وعَمَّ الغضبُ بني بكرِ بنِ وائلٍ، وراح رجالٌ منهم يُغِيرُوْنَ على السَّوادِ وأطرافِ المملكةِ الفارسيَّةِ غاراتٍ خاطفة، ويَرْجِعُون منها بالأسْلابِ والغنائِمِ، حتَّى ضَاقَ الفُرْسُ ذَرْعاً بِهِم، وشكوا إلى كسرى، فَأَقْطَعَ وَاحِداً مِنْ أشرافِ بني شيبانَ الأُبُلَّةَ، على شاطىءِ دِجْلةِ البصرة، وما وَالاَهَا، وهو قيسُ بنُ مَسْعودٍ الشيباني، الذي ضَمِنَ له ألاّ يدخُلَ البكريون أرضَ السَّوادِ، ولا يُفْسِدُوا فيها، وصار قيسٌ يُعطي كلَّ مَنْ يأتيه مِنَ البكريين مِنَ التَّمرِ والثيابِ القُطْنِيَّةِ، لِيَصْرِفَهُمْ عَنْ غَزْوِ السَّوادِ، ولكنَّه لَمْ يستطِعْ كفَّهم عَنْ مُوَالاةِ غاراتِهِم على أطرافِ المملكةِ الفارسيَّةِ،

مِمّا زاد في غَضَبِ كسرى، فَاشْتَدَّ حنقُه عليهم، وأدرَكَ أنّ قيسَ بنَ مسعودٍ الشيباني أعجزُ مِنْ أنْ يكفيَهُ أمرَ قومِهِ.

وَاسْتَشَارَ كسرى واليَهُ على الحيرةِ «إياسُ بن قبيصةَ الطائيَّ» في توجيه غارةٍ تأديبيَّةٍ على بني بكرٍ، فلمّا أشارَ عليه بأنْ يتريَّثَ و يبثَّ العُيونَ عليهم، إلى أنْ يرى غِرَّةً منهم (غفلةً). فيُوقع بهم، قال له غاضباً، ولمْ يُخْفِ اتهامَهُ له:

ـ أنتَ رجلٌ مِنَ العربِ، وبكرُ بنُ وائلٍ أخوالُكَ، فأنت تتعصّبُ لهم، ولا تَألُوْهُمْ نُصْحاً (ولا تُقصِّرُ في نصحِهِم) وكان عند كسرى يومَذاك واحدٌ مِنْ بني تغلبٍ، هو النُّعمانُ بنُ زرعةَ، وكانتْ بين بني تغلبٍ وأبناء عمِّهم بني بكرٍ أحقادٌ وعداواتٌ، فوجد التغلبيُّ الفُرصة

مُتاحةً لِهَلاكِ بكرٍ، وأشار على كسرى برأيٍ أرْضَاه:

ـــ أنا أدُلُّكَ يا خيرَ الملوكِ على غِرّةِ بكرٍ وعَوْرتها (الخلل الذي يمكن أن تُصيبها منه): أمْهِلْنا حتّى يَحُلَّ القيظُ، فإنَّ بني بكرٍ عند حلولِهِ يتساقطون على ماء لهم يُقالُ له ذو قار، تساقُطَ الفَراشِ في النّارِ، وهنا تَلْقَى جُموعَهُم مُجْتَمِعَةً فتأخذُهُم كيفَ تَشاء!

ثُمَّ تطوّعُ التغلبيُّ الحاقِدُ بِالبقاء لدى كسرى، إلى أنْ يحينَ الصيفُ وَيَحُلَّ القيظُ، لِيُشاركَ في الفَتْكِ بالبكريين وسَحْقِهم!

وأقرّ كسرى الخُطَّةَ المُقْتَرَحةَ، وراح يُعِدُّ لبني بكرٍ يوماً عصيباً، يَحْسمُ فيه أمرَهم، ويبطشُ فيه

بِرجالِهِم، ويَسْتَرِدُّ منهم ودائعَ النعمانِ بنِ المنذرِ أسْلحتَهُ، ويُطَهِرُ أطرافَ مملكتِهِ مِنْ فَسادِهِم وعبثِهِم فيها.

وأعدّ كسرى خُطَّتَهُ، وأحكَمَ تدبيرَهَا، وأيقنَ أنَّ القضاء على بني بكرٍ أصبحَ جِدَّ قريبٍ!

ومِنْ أينَ لِكسرى أنْ يُدركَ حقيقةَ ما يرى مِنْ غَضْبَةِ بني بكرٍ وعِصْيَانِهِم وثورتِهِم، وَأَنْ يَعِيَ أنَّ وراءهَا يَقْظةَ أمةٍ طَالَ أمَدُ نومِهَا، وقد آنَ لها أنْ تصحو من سُباتِها العميقِ.

الحملة الفارسية تزحف على ذي قار

أقبلَ الصيفُ واشتدَّ الحرُّ، ودفعَ الغيظُ بني بكرِ بنِ وائلٍ إلى التماسِ مواطنِ مائها في ذي قار، فأقبلوا عليها، ونزلوا بالحِنْو، على مسيرةِ ليلةٍ مِنْ ذي قار، ولمّا بَلَغَ كسرى نزولُهم أمرَ الجُموعَ التي أعدَّهَا لِلحملةِ على البكريين بالزّحف إلى بَطْحَاء ذي قار، وفي الجموعِ الزاحفةِ قواتٌ مِنَ الفُرْسِ، وقواتٌ عربيةٌ مُواليةٌ لهم.

وجعلَ كسرى القيادةَ العامَّةَ لِلحملةِ إلى عاملِهِ على الحيرةِ إياسِ بنِ قبيصةَ الطائيِّ، وكانت له

الإمرةُ على الكتيبتين «الشهباء والدوسر» وكان الفُرْسُ يجعلونَهُمَا تحتَ تصرُّفِ عُمّالِهم على الحيرةِ وما حولَهَا، وبهما كان النعمانُ بنُ المنذرِ نفسُهُ يُدبّر أمن مملكتِهِ، وكان رجالُ الشهباء مِنَ الفُرْسِ، ورجالُ الدوسر مِنْ عربِ تنوخ، قبيلةِ المناذرةِ اللخميين. وعقد كسرى لِلقائد الفارسي الهامَرْز التُسْتَري على ألفٍ مِنَ الفُرسانِ الأسَاورةِ، وهم من خيرةِ المُقاتلين الرُّماةِ من الفُرْسِ، كما عَقَدَ لِقائدٍ فارسيٍ آخرَ (خنابزين) على ألفٍ آخرين، ولهذين القائدين خِبْرَةٌ بِالمهمَّةِ الحربيّةِ التي انتُدِبا لها، إذ كانا على المسالِحِ الفارسيةِ (المسلحة: موضع السلاح والجماعة المسلحة) بِالسَّوادِ والحدودِ المتاخمةِ لِلأراضي العربيةِ.

وأمّا قادةُ الجموع العربيةِ المُواليةِ لِلفُرسِ ففيهم

خالدُ بنُ يزيدٍ البهرانيُّ، وقد عقد له كسرى على قبيلتي قُضاعةَ وإياد، والنعمانُ بنُ زرعةَ التغلبيُّ، وقد عقد له كسرى على تغلبٍ والنَّمِرِ، وأمر واليه على الأُبُلّةِ، قيسَ بَن مسعودٍ الشيبانيَّ، أنْ يوافي الجموعَ بِرجالِهِ، و يُشاركَ في زَحْفِهَا، فكان المقاتلون العربُ في الحملةِ الفارسيةِ ثلاثةَ آلافٍ، وكانتِ القواتُ الفارسيّةُ في مِثْلِ هذا العددِ، واندفعَتْ هذه الجحافلُ نحو ذي قار، لِتَنْفيذِ الخُطّةِ التي عَهِدَ بها كسرى إليها.

وكان كسرى أمَرَ الجيوشَ الزَّاحِفةَ على القبائلِ البكريَّةِ في ذي قار أنَّها إذا شارفَتْ منازلَهَا ودنتْ منها أنْ تُوفِدَ النُّعمانَ بنَ زرعةَ التغلبيَّ إلى البكريين لِيُخيِّرَهُم بين أمورٍ ثلاثةٍ:

١ - الإستسلامُ دونَ قيدٍ أو شرطٍ، ليحكُمَ فيهم

كسرى بما يشاء، وهو يُريدُ أنْ تُدفعَ إليه أسلحةُ النعمانِ وودائعهُ، وأنْ يُقدِّمَ البكريون مائة مِنْ أولادِهِم ليكونوا رَهَائنَ لدى الفُرسِ، بمثابَةِ ضَمَانةٍ لِكسرى ألاّ يُعاوِدَ البكريون غزوَ السَّوادِ، وأنْ يَمْنَعُوا سُفهاءهم مِنَ الفَسادِ والعَبَثِ بِأطرافِ المملكةِ الفارسيّةِ.

٢ - الجلاء عَنْ أراضيهم والخروجُ مِنْ دِيارِهِم.

٣ - الحربُ، وقد رماهُم كِسْرى بجموع لا طاقة لهم بها!

ولكنَّ خَبَرَ هذه الجموعِ الزّاحِفةِ على ذي قار تناهى إلى البكريين مُنْذُ اللحظةِ التي تحرّكتْ فيها، فقد بَعَثَتْ هِنْدٌ بنتُ النعمانِ بنِ المنذرِ إليهم رَسُولاً يُنذِرُهم بمسيرِ الحملةِ نحوَ ذي قار، لِيَسْتعدوا لها، ولا يُؤخَذُوا على حِيْنِ غَفْلةٍ منهم.

وأعجبُ ما في الحملةِ الزَّاحفةِ أنْ تَنْضمَّ إليها قبيلتا تغلبٍ والنَّمِرِ، بِقيادةِ النعمانِ بنِ زرعةَ، لِتُحاربا أبناء عُمومتِهِمَا مِنَ البكريين، وأنْ يتطوّعَ النعمانُ لِلقيامِ بدورِهِ القذِرِ في خِدْمَةِ الأجنبيِّ، فَيَدُلّ كسرى على مُهاجمةِ البكريين في الصّيفِ في ذي قار، لِيُوقعَ بهم مُجْتمِعِينَ، و يقضي على قبائِلِهم الواردةِ على مائهَا هناك، ولا يأنفُ النعمانُ التغلبيُّ مِنْ أنْ يحمِلَ إلى القبائلِ البكريَّةِ إنذارَ الفُرْسِ الأخيرَ قَبْلَ أنْ تَسْحَقَهَا الجيوشُ الزَّاحفةُ!

غيرَ أنّ الاحساسَ بالرّابطةِ القوميّةِ يومَذاكَ لمْ يكنْ عميقاً في النفسِ العربيةِ، لِيجعلَ القبائلَ المُتَناحرة تنسى أحْقادَها وضغائنَهَا، وتَطْرَحَ خلافاتِها الداخليةَ وعداواتِها الشخصيَّةَ، عندما يواجهُهَا الخطرُ الأجنبيُّ الخارجيُّ.

تجمّع قبائل بكر ودراسة الموقف

عندما تلقّى بنو شيبانَ نبأ تحرُّكِ حَمْلةِ الفُرْسِ نحوَ ذي قار، بعثَ هانىء الشيبانيُّ إلى قبائل بكرٍ بالخبرِ، فَأخذَتْ جموعُها تَتَوافَدُ على بَطْحاء ذي قار، حتّى تلاقَتْ جميعُ بُطُوْنِهَا، بِاسْتِثْنَاء بني حنيفةَ، إذ تُجْمِعُ الرِّواياتُ على أنّ مَعْركةَ ذي قار لمْ يَشْهَدْهَا أَحَدٌ مِنْ بني حنيفةَ البكريين. وكان رؤساء بني بكرٍ يومَئذٍ ثلاثةَ رجالٍ، هم أبرزُ أبْطالِ المَعْركةِ، وهم:

هانىء بنُ قبيصةَ بنِ مسعودٍ الشيبانيُّ.
ويزيدُ بنُ مُسهرٍ الشيبانيُّ.
وحنظلةُ بنُ ثَعْلبةَ العجليُّ.

وتميّز يومَذاكَ عددٌ مِنَ القبائلِ البكريّةِ ببُطولاتٍ مَشْهورَةٍ، وأهمُّها:

١ - بنو شيبانَ: وقد صَمَدَ أبطالُهُمْ في المعركةِ، وقاتلوا بِصِدْق وَاسْتِماتةٍ وَاصرارٍ، حتّى ذهبَتْ شيبانُ خاصةً بِفَخْرِ يوم ِذي قار ومجدِهِ العظيمِ.

٢ - بنو عِجْلٍ: وَلِزَعيمِهِم حنظلةَ بنَ ثعلبةَ الفضلُ الأكبرُ في تَحْرِيضِ القبائلِ البكريّةِ على الصُّمُوْدِ في ذي قار، ورَفْضِ الاستسلامِ والجَلاء عَنِ الدّيارِ، والتصدّي بِثباتٍ لِلجموعِ الزّاحفةِ، حتّى النَّصْرِ.

٣ - بنو يَشْكُرَ: وزعيمُهُمْ جبلةُ بنُ باعِثٍ اليشكريُّ.

٤ - بنو ذُهْلٍ: وزعيمُهُمْ الحارثُ بنُ وعلةَ الذُّهليُّ.

٥ - بنو تَيْمِ اللاتِ: وهُمُ اللّهَازِمُ، وزعيمُهُمُ الحارثُ بنُ ربيعةَ التيميُّ.

وكان رؤساء القبائلِ البكريّةِ المُتَجَمِّعَةِ في ذي قار يُوالونَ دِراسةَ موقِفِهم مِنَ الجموع الزّاحفةِ على أراضيهم، عندما وصل النُّعمانُ التغلبيُّ يحمِلُ انذارَ كسرى إليهم، ويُخيِّرُهُمْ بِقُبُوْلِ واحدٍ مِنْ ثلاثةِ أمورٍ: الإستسلامِ أو الجلاء أو الحرب! ووقف التغلبيُّ الماكِرُ ينصَحُ البكريين بتسليمِ ودائعَ النُّعمانِ وأسلحتهُ، وتقديمِ الرَّهائن المائةِ مِنْ أبنائهِم إلى كسرى، فقد أتاهم ما لا قُدْرَةَ لهم على صَدِّهِ مِنْ أحْرارِ الفُرْسِ وفُرْسَانِ العربِ مِنْ حُلفائهِم، ولأنْ يَفْتَدِيَ البكريون بعضُهُم بَعْضاً خيرٌ مِنْ أنْ يُبادُوا جميعاً ويُسْتَأصَلُوا!

وَسَمِعَ البكريون إنذارَ الفُرْسِ، ونصيحةَ الرسولِ إليهم، فقالوا: سَنَنْظُرُ في أمْرِنا، ونُخبرُكَ بما نرى!

وبدأتْ دراسةُ المَوْقِفِ العصيبِ، وَاجْتَمَعَ

(الرؤساء الأشرافُ) لِلشوُّرى وتقليبِ الأمْرِ على وجوهِهِ كُلِّهَا، وقد بدا لأكثرِهِم أنهُم لا يستطيعون أنْ يَتَصدّوا لِلجموع الزّاحفةِ عليهم، ولا يَقْدِرون على حَرْبِها، ولمْ يبقَ لهم إلاّ أنْ يختارُوا واحداً مِنْ أمرينِ: فامّا الجلاء عن ديارِهِم، وإمّا الاستسلامُ غيرُ المشروطِ لِعدوِّهِم!

وأراد هانىء الشيبانيُّ أنْ يقطعَ بِرأيهِ في اختيارِ أحدهما فقال:

ــ يا معشرَ بكرٍ، إنَّ فقد المالِ خيرٌ مِنَ الهلاكِ، وإنّ الجلاء عن الديارِ وركوبَ الفلاةِ خيرٌ لنا مِنَ الاستسلامِ!

ونَهَضَ حنظلةُ العجْليُّ عند ذلك غاضِباً، وقال:

ـ قَبَّحَ اللهُ هذا رأياً، واللهِ لا تَجُرُّ أحرارُ فارسَ أرْجُلها بِبَطْحاء ذي قار وأنا أسْمَعُ هذا الصَّوتَ! ليس لنا يا قومُ غيرُ القتالِ: فإنّا إنْ رحلْنا عَنْ ديارِنا، ودخلْنا الفَلاةَ ورَكِبْنا الصَّحْراء مُتْنَا عَطَشاً، وتتلقّانا قبائلُ تميمٍ فتُهلكنا، وإن اسْتَسْلَمْنَا تُقْتَلُ رجالُنا وتُسْبَى ذَرارِيْنا... وليس لنا واللهِ يا معشرَ بكرٍ إلاّ الحربُ، لِنَمُوتَ فيها كِرَاماً، أو نَعِيشَ مِنْ بعدِهَا أعِزّةً كِرَاماً! يا آلَ بكرٍ لا رَحِيلَ ولا اسْتِسْلامَ! وهكذا تمكّنَ حنظلةُ العجليُّ أنْ يستثيرَ نخوةَ القبائلِ البكريّةِ، وَأنْ يَبُثَّ في النفوسِ رُوحَ المُقَاومةِ وَالصّمودِ، وأقرَّ الملأ الحربَ، وَأجْمَعُوا على خَوْضِهَا، وقال حَنْظَلَةُ لِلنُّعمانِ التغلبيِّ:

ـ لولا أنك رسولٌ لما أبْتَ إلى مَنْ أرْسَلوكَ سَالِمَاً!

وَرَجَعَ النُّعمانُ إلى أصْحابِهِ فَأخْبَرَهُم بِمَا أجْمَعَ عليه البكريونَ، وبات الطَّرفانِ في ذي قار، يَسْتَعدّانِ لِخَوْضِ المعركةِ الفاصلةِ.

وَانطَلَقَ الشِّعرُ العربيُّ يُوَاكِبُ أولى مراحلِ المعركةِ وبتمجيدِ موقفِ الصّمودِ والإعدادِ لِلحربِ، بلسانِ شاعرٍ بَكْرِيٍّ كبيرٍ هو الأعْشَى مَيْمونُ بنُ قيسٍ، حينَ يقولُ مُهدِّداً ومُتوعِّداً:

مَنْ مُبلغٌ كسرى إذا ما جاءه
عَنِّي مآلِكَ مُخْمسات ٍشُرّدا

(من يحمل عنى رسائل مشهورة سائرة على كل لسان إلى كسرى؟).

آليتُ لا نُعْطِيه مِنْ أبْنَائنا
رُهناً فَيُفْسِدَهُم كَمَنْ قد أفسدا

(أقسمتُ أننا ــ يعني البكريين ــ نرفض أن

نقدِّمَ إليه الرهائن مِنْ أبنائنا لِيُفْسِدَهم كما أفْسَدَ غيرَهُمْ).

فَاقْعُدْ عليكَ التاجُ مُعتصِباً ... لا تَطْلُبَنَّ سَوَامَنا فَتَعَبَّدَا

(فاقعد عنا أيها الملك ذو التاج، ولا تَسُمنا الذلَّ والاستعباد)..

فَلَعَمْرُ جَدِّكَ لو رأيتَ مقامنا
لرأيتَ منّا مَنْظَراً ومُؤيَّداً

في عارض مِنْ وَائلٍ إنْ تلقه
يومَ الحِجاجِ يكنْ مَسيرُك نكدا

(لو أبْصَرْتَ أيُّها الملكُ جموعَنا لشهدتنا في جيشٍ كبيرٍ «كالجبل أو السحاب» إنْ لقيْتَهُ في القِتالِ لقيتَ بِهِ الشؤمَ والنَّكَالَ).

وَتَـرَى الـجِـيـادَ الـجُـرْدَ حَـوْلَ بيوتنا

مَـوْقُـوفَـةً وتـرى الـوشـيـجَ مُـسَـنَّـدا

(ورأيتَ جيادَ الفُرسان المحاربين مُعدَّةً حول خيامنا في انتظار المعركة، ورأيتَ الرماحَ مُسنَّدةً استعداداً لها).

وفي ديوانِ الأعشى عِدَّةُ قَصَائدَ قالها في حربِ ذي قار، وهي تُلْقي أضواء كثيرةً نافِعَةً على سَيْرِ وقائعِ المعركةِ مِنَ البِدايةِ إلى النِهايةِ.

الإعداد للمعركة الفاصلة

لَمْ يكنْ أمامَ قبائلِ بكرٍ للإعدادِ وللمعركَةِ القَادِمَةِ غيرُ ساعاتٍ قليلةٍ ينبغي أنْ يَتِمَّ خلالَهَا اتخاذُ الأهْبَةِ لِلحربِ، والتهيء لها قَبْلَ تلاقي الفريقين، وقد شهِدَتْ تلك الليلةُ التي سَبَقَتِ المعركةَ حركةً دائبةً في مُعَسْكرِ البكريين، استعداداً لِمَعْركة الصَّباحِ.

وفي جَوْفِ الليلِ، وتَحْتَ سِتَارِ الظَّلامِ، انسلَّ قيسُ بنُ مسعودٍ الشيبانيُّ (عاملُ كسرى على الأبلَةِ) مِنْ مُعَسْكرِ الفُرْسِ، وأتى قومَهُ بني شيبانَ،

وَأطْلَعَ زعيمَهُم هانىء بَن قبيصةَ على أسْرارِ الجموعِ الزَّاحفَةِ وَأعْدادِهَا وقُوّاتِها وأسلحتِها والخطـَّةِ التي أعِدَّتْ لِوَقْعةِ الغدِ، وأشار على بني شيبانَ بِمَا يَصْنَعُون، وحرَّضَهُمْ على الصَّبْرِ والثَّباتِ عندَ اللقاء، ثُمَّ رَجَعَ إلى خَيْمَتِهِ في مُعَسْكَرِ الجيوشِ الفَارِسيَّةِ، وَحَصَلَ بنو شيبانَ بذلك على أسْرارِ العدوِّ وتجهيزاتِهِ وخططِهِ.

وفي قلبِ الليلِ أيضاً وَصَلَ إلى معسكرِ البكريين سِراً رسولٌ مِنْ قبيلةِ إيادٍ ـــ وكانتْ تُشارِكُ في جيوشِ الفُرْسِ الزَّاحِفَةِ على ذي قار ـــ لِيقولَ لهم:

ـــ أيُّ الأمرين أحبُّ إليكم يا آل بكرٍ: أنْ تَنْفَصِلَ الآنَ جُموعُ إيادٍ تَحْتَ الليلِ، فتفارق معسكرَ الفُرْسِ، أو أنْ تُقيمَ وتُبادِرَ إلى الفِرارِ حَيْنَ تُلاقون القومَ؟

وتَدَارَسَ البكريون الموقفَ، وانهوا إلى أنْ تَقُومَ إيادٌ بهزيمتها المُدَبَّرةِ في غد عَنْدَ تلاقي الجموع، واحتدام ِ المعركةِ.

وكان في بكرٍ جَماعةٌ مِنَ الأسرى مِنْ قبيلةِ تميمٍ، وعددُهمُ قريبٌ مِنَ المِائتين، أكثرُهُمْ من بني رياحِ بنِ يربوعَ، فلمّا شَعَرَ الأسرى التميمونَ ليلةَ المعركةِ أنَّ القبائلَ البكريةَّ تَتَخِذُ أهبتها لِخَوْضِهَا صبيحةَ غدِهَا، دفعتْهُم شهامتُهُم إلى أنْ يُطالِبُوا بِالمُشاركةِ فيها، وقالوا:

ـ خلُّوا عَنّا يا بني بكرٍ نقاتِلْ مَعَكُم، فإنما نُدافِعُ بذلك عن أنفسِنَا!

ـ ولكنَّنَا نخافُ ألاَّ تُناصِحُونا، ونخشى أنْ تُغْدِرُوا بِنا!

ـ فدعونا نُعْلِمْ ـ نتّخذ علاماتٍ تدلُّ علينا عندَ

اللقاء ــ حتّى تروا مكاننا وصبرنا وثباتنا وغَنَاءنا. (فائدتنا).

وهكذا أتيحَ لِنَفَرٍ مِنْ قبيلةِ تميمٍ المُضريَّةِ أنْ يفوزوا بِشَرَفِ القِتالِ في ذي قار، إلى جانبِ بني بكرٍ، وَتَحْقِيقِ نَصْرٍ حازَةُ العَرَبُ في تاريخِهِم على الفُرْسِ.

ورأى حنظلةُ العجليُّ أنَّ الأسلحةَ التي أوْدَعَها النُّعمانُ عِنْدَ هانىء الشيبانيِّ يُمكنُ أنْ تُعينَ البكريين أذا وُزِّعَتْ عليهم، فقال لهانيء:

ــ يا أبا أمَامةَ، إنَّ ذمّتَكم (عهدَكم وضمانكم) ذِمّتنا عامةً، وَلَنْ يَصِلَ العدوُّ إليكم حتّى تَفْنَى أرْوَاحُنا جميعاً، فأخْرِجْ هذه الدروعَ والأسْلِحَةَ المُوْدَعةَ لديكَ، وفرِّقْهَا في قومِكَ لِيُحارِبوا

غداً بها، فإنْ ظَفِرْنا فَستُردُّ عليكَ، وَإنْ هلكْنا فهذه الدروعُ والأسلحةُ أهونُ مَفْقُودٍ بعدَكَ و بعدَنا!

وقَبِلَ هانيء الشيبانيُّ اقتراحَ حنظلةَ، وأمَرَ بِالأسلحةِ والدروع فأخْرِجَتْ لِلمقاتلين (وكانت ثمانمائة درع ــ وقيل سبعة آلاف درع ــ وسلاحاً كثيراً) ووُزِّعَتْ عليهم، فازدادَ بها بنو بكرٍ قُوَّةً وشوْكَةً واستعداداً.

واجتَمَعَ شيوخُ القبيلةِ البكريَّةِ لِيَتَدارَسُوا خِطَّةَ المعركةِ، ويُتمُّوا توزيعَ العملياتِ والمهماتِ، في ضوءْ ما تجَمَّعَ لديهم مِنْ أخْبارٍ عَنِ العدوِّ وخِططه ونيّاتِ قِيادتِهِ، وأشار بعضُهُمْ برأيٍ سديدٍ حَيْنَ قال:

ــ هؤلاء الفُرْسانُ الأساورَةُ يُجيدونَ الرَّمْيَ بالنُّشَّابِ (السبهام)، فإذا اسْتَهْدَفَ العدوُّ لهم

(انتصب كالهدف) أهْلكُوْهُ بِنُشَّابِهِم، ولهذا فَخَيْرُ خِطَّةٍ لِمُحارَبَتِهِم ألاَّ يُواجِهَهُم عدوُّهم قِطْعَةً واحدةً، فتكون هدفاً سَهْلاً لِسِهَامِهِم ونبالِهِم، بَلْ يَنْبغي لِعدوِّهِم أنْ يُقَسِّمَ فرسانَهُ المقاتلين إلى كَرَادِيسَ (كتائب) في كُلِّ كَرْدُوسٍ (كتيبة) قِطْعَةٌ مِنَ الفُرْسانِ، فإِذا أقْبَلَ الأساورةُ على كَرْدوسٍ، شَدَّ (هجم) كَرْدوسٌ آخرُ عليهم، وأزالهم عن مواقعهم (طردهم وهزمهم).

واهْتَمَّ البكريونَ بأنْ يتزوَّدُوْا بِمَقادِيرَ كبيرةٍ مِنَ الماء، وَاسْتَقوا ماء يكفي جُمُوْعَهُم لِنِصْفِ شَهْرٍ، فالوقتُ صَيْفٌ، والحرارةُ في النَّهارِ شَدِيدةٌ، وسيدفعُ القيظُ المُحاربينَ إلى التِماسِ المزيدِ مِنَ الماء لِيَشْربُوا وَ يَبْتَرِدُوا إذا اشتدَتْ وطأةُ الهجيرِ عليهم يومَ غدٍ!

وهكذا أمضى البكريون ليلتَهُم في إعدادٍ مُتَواصِلٍ لمعركةِ الصباحِ، ورسموا خِطَّتَهُم لها مُسْتَفِيدينَ مِنْ كُلِّ رأيٍ وتجربة ومَشُوْرةٍ، حتّى أنْجَزُوا كُلَّ ما يستطيعون انجازَهُ خلالَ ساعاتِ الليلِ، وقد اسْتَقَرَّ عزمُهم على الصِّدْقِ في القِتالِ، والصمودِ في مُوَاجهةِ الموتِ.

وأشرقتْ شمسُ ذلك اليومِ على بَطْحاء ذي قار، وقد غَصّتْ جنباتُ الوادي بالجيوشِ الزاحفةِ مِنْ كِلاَ المُعَسْكرينِ، وأطلَّ التاريخُ على ذي قار، لِيَشْهَدَ وقائعَ المعركةِ الفَاصِلةِ بين الفُرْسِ والعَرَبِ، وما تكشَّفَتْ عنه أحداثُهَا مِنْ بُطولاتٍ وأمجادٍ.

وقائع المعركة وسير عملياتها

في صباحِ يومِ المعركةِ أقبلَ الفُرْسِ وحلفاؤهم على وادي ذي قار ليأخذوا مواقِعَهُم فيه، وانتظَمُوا في مواجهةِ القبائلِ البكريَّةِ، على تَعْبئةٍ: في القَلْب تجمَعَ القائدُ العَامُّ لِلجيوشِ إياسُ بنُ قبيصةَ الطائيُّ ومعه كتيبتاه: الشهباء والدَّوْسرُ، والقَادةُ العربُ الآخرون مِنْ حُلفاء الفُرْسِ مَعَ المحاربينَ مِنْ قبائلِهِم المُواليةِ لهم، وعلى الميمنةِ الهامَرْزُ وجيشُهُ مِنَ الفُرْسانِ الأساورةِ، وعلى الميسرةِ خنابزين وجيشُهُ من الأساورةِ الفُرْسِ أيضاً، وبعضُ المؤرِّخينَ كالطبريِّ وَابْنِ الأثيرِ يشيرون إلى اصطِحَابِ الفُرْسِ

لِلفيول في زَحْفِهِم على ذي قار، ولكننا لا نَجِدُ في العِقْدِ لابنِ عبدِ رَبِهِ، ولا في شِعْرِ الأعشى وغيرِهِ من الشُّعراء الذينَ تغنوا بأمجادِ المعركةِ، أثراً لهذهِ الأفْيالِ أو إشارةً ما إليها.

وكانتِ القبائلُ البكريَّةُ قد عَبّأتْ قواتِها تعبئةً مُمَاثِلةً: ففي القلبِ تجمّعتْ أفناء (جماعات) بكرٍ وبطونُها المتعددةُ وعليهم هانيء ابنُ قبيصةَ الشيبانيُّ، ومعهم المحاربون مِنْ أسرى تميمٍ، وعلى الميمنة بكرُ بنُ يزيدَ بنِ مَسْهرٍ الشيبانيُّ وجموعُ بني شيبانَ، وعلى الميسرة حنظلةُ بنُ ثعلبةَ العجليُّ وجُموعُ بني عجلٍ، وأعدَّ البكريون كميناً وراء مواقعِ الجيوشِ الفارسيَّةِ، في مكان يُقالُ له الخبيء، وجعلوا قيادتَهُ لِيزيدَ بنِ حمارٍ السَّكونيِّ، وكان حليفاً لشيبانَ، وهو الذي اقترح عليهم إعدادَ الكمينِ، فأخذوا بِرأيِهِ، ليتمَّ

حصارُ الجيوشِ الفارسيّةِ وحلفائهَا مِنْ جِهتَينِ، في طرفي الوادي، و يَمتَنِعَ عليها الوصولُ إلى مَواطِنِ الماء فتهلك عطشاً!

وَمُنْذُ الصباحِ الباكرِ أخذَتْ كُلُّ قبيلةٍ مِنْ قبائلِ بكرٍ موقعَهَا المحدَّدَ لها في ميدانِ المعركةِ، حَسْبَ الخِطةِ المرسومةِ ليلاً، وتهيأتْ لخوضِ المعركةِ في حَمَاسةٍ لِلقِتالِ، وَتَعاهُدٍ على الصَّبْرِ، واستعداد لِلموتِ، ووراء كُلِّ قبيلةٍ هَوادِجُ النساء على عادةِ العَرَبِ، وأراد حنظلةُ العجليُّ، وهو أشْجَعُ فارسٍ في مَعْركةِ ذي قار، أنْ يَضْرِبَ المثَلَ للبكريين بنفْسِهِ في عَزْمِهِ على الثَّباتِ حتّى الموتِ، فأمر أنْ تُضربَ قُبَّةٌ (خيمةٌ) له في موقِعِهِ في قيادةِ مَيْسَرَةِ البكريين، وَأقْسَمَ ألاّ يفرَّ حتّى تفرَّ القَبَةُ! ثم قام بنفسِهِ إلى رواحِلِ نسائهِ، فقطَعَ الوُضُن (أحزمةَ الرِّحالِ)،

فَتَساقطَتِ النساء بِهَوادِجِهِنّ على الأرضِ، وحَذَا بنو عجلٍ حَذْوَ سيّدِهِم، وهو يصيحُ فيهم:

— أيُّها الإِخوةُ لِيُقاتِلْ كُلٌّ منكم عَنْ حَلِيلتِهِ حتّى الموتِ، وأنا في مُقدّمتكم!

فسُمّي حنظلةُ العجليُّ مُنْذُ ذلك اليوم «مُقَطّع الوُضُن» وقد أراد بِقَطْعِها أنْ ييأسَ الرجالُ مِنَ الفرارِ بنسائِهِم، وأنْ يَضْمنَ ألاَّ يُفكّروا في الهَرَبِ، وأنْ يُقاتِلوا باسْتِماتةٍ دِفاعاً عن نسائِهِم وذراريهم (أولادهم) حتّى الرَّمقِ الأخيرِ، ورأتْ قبائلُ بكرٍ ما فعل حنظلةُ، فدبّت الحماسةُ في النفوسِ، واشتعلَتِ النخوةُ في الصدورِ، وتعالتْ أصواتُ الخُطباء بين الصُّفوفِ، تحرِّضُ الرجالَ على الثَّباتِ والصَّبْرِ.

وقال هانىء بنُ قبيصةَ الشيبانيُّ:

ـ «يا قومُ، مَهْلَكٌ مَقْدُوْرٌ خيرٌ مِنْ نجاء مَغْرُورٍ (هلاك مُقدّر عليكم خيرٌ من نجاة تجلب الذمّ والعيب والعار) وإنَّ الحذرَ لا يَدْفَعُ القَدَرَ، وإنَّ الصّبْرَ مِنْ أسْبابِ الظَفرِ، المنيّةُ ولا الدنيةُ واسْتِقْبالُ الموتِ خيرٌ مِنِ اسْتِدْبارِهِ، (أن تموت مهاجماً شجاعةٌ، وأن تموت منهزماً عارٌ) وَالطَّعْنُ في الثغرِ (الوجه) خيرٌ مِنَ الطَّعْنِ في الدُّبرِ (القفا)! يا قومُ جِدّوا فما مِنَ الموتِ بُدٌ، فَتْحٌ (نَصْرٌ) لو كان له رجالٌ، يا آلَ بكرٍ شُدّوا (اهجموا) وَاسْتَعِدّوا، وإ' تَشُدُّوا تُرَدُّوا».

فَزَأرَتْ عند سماعِ الخطبةِ الجموعُ، وهاجَ النّاسُ، وقَطَعَ سبعُمائة رَجُلٍ مِنْ بني شيبانَ أيدِي أقبيتِهِم (لباسهم) مِنْ مناكبها لِتخفَّ أيديهم

وتسهُلَ عليهم الحركةُ، في الضَّرْبِ بالسّيوفِ، وَالطَّعْنُ بالرِّماحِ، و بلغتْ حماسةُ البكريين أوجها.

وخَطَبَ شُريكُ بنُ عمروٍ فيهم فقال:

ـ «يا قومُ، إنَّما تهابون أعداءكم لأنَّكم ترونهم عند الحِفاظِ (القِتالِ والدفاعِ) أكثر منكم، وكذلك أنتم في أعينهم، فعليكم بالصَّبْرِ، يا آلَ بكرٍ: قُدْماً قُدْماً (تقدّموا ولا تتراجعوا)» وقد أشار شُريك في خطبتِهِ إلى التَّفَاوتِ العَدَديِّ بين الطرفين، فالبكريون في ذي قار دُوْنَ جموعِ كسرى عدداً، ولكنّهُم إذا صبروا واستماتوا هابتهم جموعُ الأعْداءِ، ورأتهم بعينِ الهَيْبَةِ والخوفِ أكثرَ مِنْ أعدائِهم عدداً.

وعندما تَقَارَبَ الفريقانِ، نادى حنظلةُ العجليُّ في جُموعِ البكريين:

ـ يا آلَ بكرٍ، إنّ النُشّابَ (السهام) مع الأعاجم يُفرِّقُكم، فإذا أرسلوه (رموه) لم يُخطِئكم (أصابكم) فعاجلوهم اللقاء، وَابْدَءوهم بالشدّة (الحملة)».

وَانْدفعَ حنظلةُ يَرْجزُ في الجموع:

قد جَدَّ أشيَاعُكُمُ فجدُّوا
(أشياعكم: أنصاركم)
والقوسُ فيها وتَرٌ عُرُدَّ
(عُرُدُّ: شديد)
مِثْلُ ذِراعِ البَكرِ أو أشدُّ
(البكر: الناقة،
إنّ المنايا ليس منها بُدُّ
نفسي فداكم وأبي والجَدُّ

وأعقب حنظلةَ ولدُهُ يزيدُ بنُ حنظلةَ العجليُّ،
فراح يرجز بين الناسِ:

مَـنْ فَـرَّ مـنـكـم فـرَّ عَـنْ حَـرِيـمـه
وجـــارِهِ وفـــرَّ عـــن نـــديمـــةِ

وكانت النساء البكريات خَلْفَ صفوفِ رجالِهم المحاربين، وقد بَرَزْنَ مِنْ هَوَادِجِهِنَّ، ورُحْنَ يُشارِكْنَ في حضّ الرجالِ على الصمود والصبرِ، وسُمِعَتِ امرأةٌ مِنْ عجلٍ تصيحُ في الرجالِ:

إنْ تهْزِمُوا نُعانِق ... ونَفْرُشِ النّمارِق
أو تهرُبوا نُفارق ... فراقُ غيرِ وامِقْ

(إن تثبتوا وتهزموا عدوّكم نستقبلكم بالقبلات، ونفرش لكم الوسائد، وإن تفرُّوا نفارقكم ونكرهكم، ونصبح سبياً لعدوكم).

وتمَّ لجموع كسرى اتخاذُ مواقِعِها في الوادي، وتقابَلَ الطَّرفانِ، وقد تراصّتِ الجحافلُ (الجيوش) خَلْفَ قادَتِها، وعمّتِ الجلبةُ أرْجاء ذي قار مِنْ

صيحاتِ الجموعِ الحاشِدَةِ، وتطلَّعتِ الأبصارُ إلى ساحةِ المَيْدانِ الفاصِلَةِ بين الفَرِيقين، حين بَرَزَ من صُفوفِ الفُرْسِ، مِنْ مَيْمَنَتِهِمْ فَارِسٌ مِنْ أسَاورةِ الهامَرْز، في أذنيه قُرْطَانِ كَالدرَّتين، شارتا شَرَفٍ ورِفْعَةٍ، فجالَ في وَسَطِ الميدانِ، يَتَحَدَّى النّاسَ لِلبرازِ، ثُمَّ اقْتَرَبَ مِنْ ميمنةِ البكريين ونادى في بني شيبانَ بالفارسيّةِ:

ــ مَرْدُ ومَرْد! (رجل لرجل).

فلمْ يبرزْ إليه أحدٌ منهم، وكأنهم لم يفهموا ما يُريدُ، فتخطّى الساحةَ إلى وسطِهَا، وأعادَ النداء ثانية، فقال يزيدُ بنُ حارثةَ اليشكريُّ:

ــ ماذا يُريدُ وماذا يقول؟

ــ إنّه يدعو إلى البِرازِ: رجل لرجل

ــ وأبيكم لقد أَنْصَفَ!

وخَرَجَ يَزيدُ إلى لقائِهِ، وشَدَّ عليهِ بالرّمْحِ، في هجومٍ صاعِقٍ، فَطَعَنَهُ في وسطِهِ، وَدَقَّ صُلْبَهُ، فتهاوى إلى الأرضِ، فَوَقَعَ يَزيدُ عليهِ، وَسَلَبَهُ حليتَهُ وسلاحَهُ، وعاد بينَ صيحاتِ الإعجابِ مِنَ البكريين إلى مكانِهِ في صُفوفِ قَبيلَتِهِ يشكر، وصمتَ الفُرْسِ وقد بُهِتُوا، وهم يَشْهَدُونَ مُنْذُ الدقائق الأولى لِلمعركةِ مَصْرَعَ واحِدٍ مِنْ شُجْعانِ أساورتِهِم، وعندما رأى الهامَرْزُ (قائد الميمنة الفارسية) نتيجةَ المُبارَزَةِ، رَكِبَهُ الغضبُ والحَنَقُ، وَانْدَفَعَ بفرسِهِ إلى الساحةِ مُهْتاجاً، يدعو إلى البِرازِ:

— مَرْد ومَرْد!

فارتدَّ يَزيدُ بنُ حارثَةَ اليشكريُّ إلى السَّاحةِ، وأقبلَ على الهامرز، وراحَ يُصاوِلُه ويُناجِزُهُ (يُواثِبُهُ ويُقاتله) حتّى تمكّن منه فقتله! وبعضُ الرواياتِ

تذكرُ أنَّ قاتلَ الهامَرْز هو الحوفزانُ الشيبانيُّ مِنْ بني ذُهْلٍ، ومهما يكنْ فقد سَقَطَ الهامَرْزُ مُضرَّجاً بدمائِهِ، فازدادتْ حماسةُ البكريين، وشاهَتْ مِنَ الفُرْسِ الوجوهُ، وقبلَ أنْ يَعْمَد الأساورةُ إلى رمي النَّبالِ صاح حنظلةُ العِجْليُّ، مذكّراً قومه بما كان أوْصَاهُم بهِ ليلاً:

ـ «يا آلَ بكرٍ، لا تقِفُوا لِعدوِّكم حتّى يُمطرَكم بِنبالِهِ، ويمزّقَ جمعَكم بنُشابِهِ، واحمِلوا على جُموعِهِ حَمْلَةً واحدةً صادقةً، وكُرّوا على الأساوِرةِ، وأبيدُوهُم بِرماحِكم وسيوفِكم!»

وكرَّتْ جُموعِ بكرٍ على الجيوشِ الفارسيَةِ، والتحمُوا بها:

حَمَلَتْ مَيْسرةُ بكرٍ أولاً وعليها حنظلةُ العجليُّ على ميمنةِ الفُرْسِ، وقد تَضَعْضَعَتْ شوكةُ أساورتَها

انهارت معنوياتهم بمصرع قائدِهم الهامرز، وحملتْ ميمنةُ بكرٍ على مَيْسَرَةِ الفُرسِ، والتحم القلبُ بالقلبِ، وَتَمَّ اشتباكُ الجموعِ المُحتشِدَةِ كُلّها، عندما خَرَجَ الكمينُ البكريُّ مِنَ الخبيء بقيادةِ يزيدَ السكونيِّ، وَشَدُّوا في حملةٍ كاسِحَةٍ على ظهورِ الجيوشِ الفارسيّةِ، وتمَّ حصارُها بين فكّي (كماشة)، واختلطتِ الجموعُ، وتلاحَمَ الأبطالُ، وتمكّن حنظلةُ العجليُّ من خنابزين قائدِ أسَاورةِ الميسرةِ فقَتَلَهُ، وضيَّقَ البكريّون الحِصارَ، وانقَضَّ بنو شيبانَ وبنو عجلٍ على الفُرْسِ يحصدونهم حَصْداً مِنَ الطرفين، ويُمزّقون جموعَهم تمزيقاً، واشتدتْ حرارةُ اليوم، وكان شَديدَ القَيْظِ، وقد سُدَّتْ على الفُرْسِ الطُّرُقُ إلى مواطنِ الماء، بِحصارِ البكريين لهم من طرفي الوادي، واستبدَّ العطشُ بالفُرْسِ، وخارتْ قوى

كثيرٍ منهم، وعندما ولَّتْ قبيلةُ إياد مُنْهزمةً هزيمَتَها المُدبِّرةَ، كما وعدَتْ بكراً، انهارتْ مُقاومةُ القلب في جيشِ الفُرْسِ، وعمَّ الفزعُ أساورتَهم، وصدقَتْ بكر في حَمْلَتِها على الجموع الفارسيَّةِ وَحُلفائها حَمْلَةً واحدةً قاصِمَةً، وثبتَتْ عجلٌ وشيبانُ في مواجهةِ الأساورةِ، فقاتَلَتا أشجَعَ قتالٍ، وشهدتْ بَطْحَاء ذي قار في ذلك اليوم بطولاتٍ عربيةً صمدَتْ للموتِ، وسَخَتْ بالدِّماء الغزيرةِ، حتّى لاحَ لها النَّصرُ بَعْدَ ساعات قليلةٍ مِنْ بَدْء القتالِ، واندَحَرَتِ الجيوشُ الفارسيَّةُ وحُلفاؤهَا، وانهزمتْ جموعُ كسرى قُبَيْلَ مُنْتَصَفِ النَّهارِ، كما يَشْهَدُ الأعشى:

(وخيلُ بكرٍ فما تنفكُّ تطحنُهم-حتى تَوَلَّوا وكاد اليومُ ينتصفُ)وراحَ أبطالُ بكرٍ يُطاردون المنهزمين و يَقْتُلُوْهم بقيةَ اليوم وطَوالَ الليلةِ بَعْدَهُ، لا يلتفتون

إلى الأسْلابِ والغنائمِ، حتى بَلَغَ المنهزمون السَّوادَ، مِنْ ريفِ العراقِ، والبكريون خلفهم يَحْصِدونَهُم في صباحِ اليومِ التالي لِلمعركةِ، و يُلاحِقُونَهم ليفتكوا بهم؛ ولقيتِ القبائلُ العربيةُ المواليةُ لِلفُرْسِ في ذلك اليوم إحساساً مُرّاً بالخزيِ والعارِ، وكان رؤساؤها في مُقدّمةِ المنهزمين، وكان النُّعمانُ بنُ زرعةَ التغلبيُّ في جملةِ مَنْ أسِرُوا في ذي قار، وقد أَسَرَهُ فُرسانٌ من بني عجلٍ، ولكنّهم اكتفوا بجزِّ ناصيتِهِ (قطع مقدم شعر رأسه) إذْلالاً له، وخلّوا سبيله، لما له مِنْ صِلةِ القُربى في عجلٍ، ولو عَرَفَ آسِروهُ بجُرمِهِ الكبيرِ، وسعيِهِ الماكرِ في إهلاكِ بكرٍ، ونُصحِهِ لِكسرى بتوجيه حملتِهِ إلى ذي قار لِسَحْقِ البكريين عند اجتماعِهِم على مائه.. لو عرف آسروه كُلَّ ذلك لترددوا في إطلاقِ سراحِهِ!

وأمّا القائدُ العامُّ لِلحملةِ الخائبةِ (إياس بن قبيصة الطائي) فكان أولَ المُنهزمين، وأولَ مَنْ وَصَلَ إلى كسرى بالهزيمة، ولكنه خاف مِنْ إبلاغِهِ النبأ، وخشي مِنْ غَضْبَةِ كسرى عليه، واضطرَ إلى الكذِبِ فادَّعى أنّ الهزيمةَ قد تَمّتْ على بكرٍ، وَأنَّ السَّبْيَ مِنْ نسائِهِم في الطريقِ إلى كسرى ، ثُمَّ استَأذَنَهُ أنْ يلحقَ بأخيه المريضِ في عينِ التمرِ (بلدة قريبة من الأنبار غربيِّ موضع الكوفة)، لِيَهربَ من وجهِهِ، خجلاً وخِزياً، فأذنَ له، فركِبَ فَرَسَهُ «الحمامةَ» التي نجا على ظَهْرِهَا مِنْ أسرِ بكرٍ، لِيَنْجو ثانيةً مِنْ غَضَبِ كسرى عندما تبلغه أنباءُ الهزيمةِ المُخزيةِ، لأوّلِ مرةٍ في تاريخِ الفُرْسِ، أمامَ الصمودِ العربي المُذهل للقبائلِ البكريّةِ.

عوامل النصر العربي: نظرة تحليليه

لَمْ يكنْ النصرُ العربيُّ العظيمُ على الفُرْسِ وحلفائِهِم في ذي قار أمراً مُتَوَقَّعاً، بَلْ كان المُتَوَقَّعُ أَنْ تُسفِرَ المعركةُ عن سحقِ القبائلِ البكريَّةِ وإبادتِها؛ وجميعُ المصادرِ التي نَقَلَتْ لنا أخبارَ المعركةِ تؤكِّدُ التفاوتَ وَعَدَمَ التَّعادلِ والتكافؤ بَيْنَ الفريقينِ المتقابلينِ، وتُقرِّرُ أَنَّ البكريين أنفسَهُم أيقنوا بِالْهَلاكِ، وهم يرون تدفّقَ جُموعِ كسرى على ذي قار، حتّى هَمَّ سيّدُ بني شيبانَ، هانيءُ الشيبانيُّ، بِالجَلاءِ عَنِ الدِّيارِ، ونصح قومَهُ بذلك، والرواةُ يَعُدُّونَ ذلك منه زلَّةً لمْ تُعرَفْ له مِثْلُها، مَعَ أَنَّ أكثرَ

القبائلِ البكريَّةِ كادَتْ يومَئذٍ تَرْكُنُ إلى رأيِهِ، وتُخْلِي الديارَ لِلفُرْسِ، لولا صمودُ حنظلةَ العجليِّ وَإصْرارُه وقيادتُهُ البكريين حتّى النَّصْرِ، فكان أولَ فوزٍ حربيٍّ لِلعربِ على الفُرْسِ.

لهذا ينبغي أَنْ نبحثَ عن الأسبابِ التي أَدَّتْ إلى انتِصَارِ العربِ في ذي قار، وهُمُ الفِئَةُ القليلةُ المُسْتَضْعَفَةُ التي تَضُمُّ بعضَ القبائلِ البدويّةِ، على الفُرْسِ، وهُمُ الدولةُ المتحضِّرةُ القويّةُ ذاتُ الجيوشِ المنظَّمَةِ المُدرَّبةِ، التي تخافها القبائلُ العربيةُ المجاورةُ وتُحالِفُها وتُواليها!

وفي ذي قار كان الفرسُ أمّةً عُظْمَى ذاتَ حضارةٍ ودولةٍ وشوكةٍ وحروبٍ وانتصارات، وكان العربُ ما يزالون قبائلَ بدويّةً متفرِّقةً متمزِّقةً، تُحرِّكها الأحقادُ والعداواتُ القبلِيّةُ، وتُشَتِّتُ شملَ

جموعِهَا الحروبُ الأهليَّةُ التي لا تنتهي، فكيف تمّ لِلعربِ النصرُ؟

سَنُحاولُ أَنْ نلقي نظرةً تحليليةً على جُمْلةِ الأسبابِ التي قادت العربَ إلى النَّصْرِ، والفُرْسَ إلى الهزيمةِ، خلافاً لكلِّ ما كان يُنتظر و يُتوقّع..

— ١ —

في طليعةِ أسبابِ النصرِ العربيِّ في ذي قار وَحْدَةُ قبائلِ بكرِ بنِ وَائلٍ، فقد خاض البكريون المعركةَ بجميعِ بطونهم ـ باستثناء بني حنيفةَ ـ وقد لَبَّتْ جميعُ القبائلِ البكريةِ نداءَ بني شيبانَ، ولمْ تُحجِمْ قبيلة منها أو تمتنعْ عَنِ المُشَارَكَةِ في الحربِ، أما غيابُ بني حنيفةَ البكريين فسببُهُ أَنَّهم لمْ يَحْضُرُوا صَيْفَ ذلك العامِ إلى ذي قار، ولم يشهدوا المعركة

كَذلكَ، و يرى بعضُ الباحثين اليومَ أنّ بني تَغْلِبٍ كانوا يومَ ذي قار مع أبناء عَمِّهِم بني بكرٍ، ولم يكونوا عليهم مع الفُرْسِ، بِدليلِ قولِ الأعشى في قصيدتِهِ التي يُهَدِّدُ فيها كسرى بِقُوَّةِ قومِهِ:

في عـارضٍ مِـنْ وائـلٍ إنْ تَـلْقَـهُ
يـومَ الهـيـاجِ يـكـنْ مـسـيـرُكَ أنكدا

(يقول: في جيش كبير كالجبل أو السحاب، من رجال وائل، إن تلقَه يا كسرى يومَ المعركةِ يكن مسيرك إلى لقائه شؤماً ونكالاً عليك) ورجالُ (وائلٍ) يجمعون (بكراً وتغلِبَ)، ولو كانتْ تغلبُ منشقةً على بكرٍ، لَخَصَّصَ الأعشى وقال: «في عارض من بكر»!

إنّ وحدةَ قبائلِ بكرٍ في حرب ذي قار من أكبرِ عواملِ انتصارها فيها، وقد جَمَعَتِ الحربُ البكريين

صَفّاً واحداً، لم يخرج عنه أحدٌ، حتى إنّ قيسَ بنَ مسعودٍ الشيبانيَّ، وهو صنيعةٌ من صنائع كسرى، وعاملُه على الأُبلّة كما قدّمنا، لمْ يَخُنْ وَحْدَةَ قومِهِ، فَانْسَلَّ ليلةَ المعركةِ إليهم، وقدَّم لهم عونَه ونُصْحَهُ، وَأَطْلَعَهُم على خِطَطِ خصومِهِم وأسرارِهِم؛ وفي شِعْرِ الأعشى مع ذلك غضبةٌ على قَيْسِ بن مسعودٍ لأنّه رحل إلى كسرى بعدَ المعركةِ، يُحاوِلُ مصالحتَهُ وإرضاءهَ، ولكنّ كسرى ــ وقد بلغه ما فعل قيس ــ انتقم منه، وَحَبَسَهُ حتّى ماتَ في حبسِهِ، غَيْرَ أَنّه مات راضياً قريرَ العينِ، وقد أسهم في شرفِ انتصارِ قومِهِ بِنَصِيْبٍ مَذْكورٍ.

وَتَبرزُ وَحْدَةُ بكرٍ في ذي قار بِالْتِفافِ قبائلِهَا المحاربةِ وراءَ قيادةٍ موحَّدةٍ: فقد كان هانيء الشيبانيُّ سيّدَهُم أولَ الأمر، ثم ولوا أمرهم حنظلةَ

العجليَّ، كما يُشِيرُ الطَّبريُّ، فلمْ يَجِدْ هانيء لذلك غضاضةً في نفسه، وكان حنظلةُ لا يَسْتبدُّ برأيِهِ، ويَسْتَشِيرُ رؤساءَ القبائلِ وشيوخَهَا، وتتسِعُ قيادتُهُ لكلِّ رأيٍ نافعٍ، فهي قيادةٌ ديموقراطية شُورِيّةٌ، زادتْ قبائلَ بكرٍ تلاحماً، فأقبل رجالُهَا على المعركةِ يداً واحدةً، وقلباً واحداً، وقد مكَّنَتْهُم وحدتُهُم من مواجهةِ الفُرْسِ في تعبئةٍ ونظامٍ حربيٍّ مُماثلٍ لتعبئتهم، فقابلوهم بقلبٍ وجناحين في الميمنة والميسرة، وكَرْدَسوا (قَسَّمُوا) فُرْسانَهُم كراديسَ كراديسَ، ولمْ يتحكَّمْ في نظامِ تعبئتِهِم انتماؤهُم لِلبطونِ المُخْتلفةِ مِنْ قبائلِهِم وعشائرِهِم، شأنَ العربِ في أيامِهِم وحروبِهِم الأخرى، وقد يَسَّرَتْ لهم هذه التعبئةُ أَنْ يُنفِّذوا عملياتِ المعركةِ على النحو الذي رسموه وخَطَّطُوا له، فكانتْ وحدتُهم أكبرَ عاملٍ في إحْرازِ انتصارِهِمُ الكبير.

ـ ٢ ـ

وعاملٌ آخر في انتصارِ العربِ في ذي قار، وهو أنَّ قبائلَ بكرٍ كانتْ تَخوضُ حَرْباً دفاعيةً لِردِّ المُعْتدين المُغيرين على أراضيها، ولم يكنْ أمامَها سبيلٌ غير الحرب، ففي الجَلاءِ عن ديارِها هلاكُهَا في الصَّحارَى عَطَشاً، أو هلاكُهَا على يَدِ القبائلِ التميميةِ التي تترصَّدُها فيها، وفي الاستسلامِ غيرِ المشروطِ لِكسرى العارُ والخزيُ، ثم الهلاكُ أيضاً، لأنَّ كسرى سيقتل كلَّ مُحاربٍ من قبائلِ بكرٍ، لَيَسْحَقَ شوكتَهَا، ويقضي على قوتِهَا ومقاومتِهَا، وسيأخذُ الرهائنَ من أبناءِ البكريين، لِيَتحكَّمَ فيهم ويَسْتذِلَّ ذويهم ويجعلَ بكراً كلَّها رهنَ مشيئتِهِ وإذلالِهِ وبطشِهِ!

هي معركةٌ عدوانيةٌ مَفْرُوضَةٌ على قبائلِ بكرٍ

فَرْضاً، وعلى كلّ بكرِيٍّ أنْ يُدافعَ عن أرضِهِ ووجودِهِ وكرامتِهِ وأبنائهِ وأموالِهِ، لِيصدَّ الأجانبَ الغُزاةَ المُعتدين، فهذا هو الحافِزُ إلى الصمودِ حتّى الموتِ أو النَّصْرِ في نفوسِ البكريين؛ وهو سِرُّ بطولاتِهِم واستماتَتِهِم في الحربِ في ذي قار، والحق أننا عندما نَدْرُسُ جذورَ الحربِ لتحديدِ مَسْئوليةِ البكريين في إثارَتِهَا، تُطالعنا ثلاثةُ أسبابٍ.

أولُهَا: أَنّ مصرعَ النُّعمانِ بنِ المنذرِ ملكِ الحيرةِ في سجنِ كسرى أثار غَضَبَ العَرَبِ، فكان قتلُهُ سببَ مَعْركةِ ذي قار.

وثانيها: أَنّ امتناعَ هانِيء الشيبانيُّ عن تسليمِ أَسْلحةِ النُّعمانِ وودائعِهِ إلى كسرى هو السببُ في إثارةِ غَضَبِ الفُرْسِ وَإِرْسالِ حملتِهِم على القبائلِ البكريّةِ في ذي قار.

وثالثُهَا: أَنّ غاراتِ البكريين على السُّوادِ وأطرافِ المَمْلكةِ الفارسيَّةِ وعبثَهُمْ فيها، بَعْدَ مَصْرَعِ النُّعمانِ، أَقْلَقَ كسرى، وحاولَ عبثاً أَنْ يكفيَهُ بعضُ صنائعِهِ مِنَ الشيبانيين (قيس بن مسعود) أمرَ تلك الغاراتِ على حدودِهِ، فقرَّرَ أَنْ يرسلَ حملتَهُ التأديبيَّةَ الإنتقامِيَّةَ إلى ذي قار:

هذه الأسْبابُ كُلُّهَا مُجْتمِعةً لا تُسوِّغُ إصرارَ الفُرْسِ على سَحْقِ القبائلِ البكريَّةِ مِنْ أَجْلِهَا، فبكرٌ لمْ تغضبْ وحدها لمصرعِ النّعمانِ الغادرِ في سجنِ كسرى، وقد أثارَتْ مأساتُهُ حزنَ كثيرٍ مِنَ العربِ وغضبَهُمْ، كما قدّمنا، وتسليمُ بني شيبانَ ودائعَ النُّعمانِ إلى غيرِ مُستحقِّيها أمرٌ يُناقِضُ الذمّةَ والشَّرَفَ، في تقاليدِ أَيّةِ أمّةٍ من الأمم، والغاراتُ

التي كان بعضُ البكريين يشنُّونها على السَّوادِ وأطرافِ فارسَ ليستْ حُجةً كافيةً لإبادةِ القبائلِ البكريَّةِ بأسْرِها، وعلى جُنْدِ الحدودِ أنْ يَسْهَرُوا على حمايَتِهَا وأَمْنِهَا، و يعاقبوا العابثين المفسدين وحدهم: ولهذا وَجَدَتِ القبائلُ البكريّةُ نفسَهَا في ذي قار أمامَ حملةٍ عدوانيةٍ تحاولُ إبادتها، لغير ما سببٍ جَنَتْهُ، غيرَ تمسّكِهَا بالذِّمةِ والشرفِ، ورفضِها الخزيَ والعارَ، فدافَعَتْ عن وجودِهَا كُلِّهِ باسْتِماتَةٍ، وتكشّفتِ المعركةُ عن بطولاتٍ عربيةٍ تناقلَ المؤرخون أخبارَهَا، وعند الطَّبريِّ وصفٌ لِصمود الأبطالِ من بني عجلٍ في وَجْهِ الجموعِ الزاخرةِ من الأسَاورةِ، حتّى قالَ النّاسُ: «هلكتْ عجلٌ!» ولكنّ عجلاً ظَلّتْ صامدةً تتحدى الموتَ، وقديماً قيل: مَنْ يطلب الموت تُوهبْ له الحياةُ!

ـ ٣ ـ

وعاملٌ ثالثٌ في انتصارِ العربِ في ذي قار أَنّ المعركةَ جَرَتْ في فترةٍ بدأ الضميرُ العربيُّ فيها يَسْتَيْقِظُ من سُباتِهِ (نومه) العميقِ، وأخذتِ القبائلُ العربيةُ المُتَناحِرةُ، وبطونها المُتَعاديةُ المُتفرقةُ، تَسْتَشْعِرُ الحاجةَ إلى رباطٍ يُقرِّبُها ويجمعُ شتاتها، وكان ذاك بدايةً للشعورِ القوميِّ برابطةِ العُروبةِ التي تُوحّدُ أمّةً آنَ لها أنْ تُحِسَّ بِذاتها وتكشِفَ عن مُقوّماتِهَا ومزاياها، وقد أعان هذا الشعورُ القوميُّ قبائلَ بكرٍ في معركتِهَا مَعَ الفُرْسِ حين أتاحَ لها ألاّ تُفاجَأ بالجيوشِ الزّاحِفَةِ على ذي قار، لأنّ هنداً بنتَ النُّعمانِ أرسلتْ تُنذرها بتحرُّكِ الحملةِ الفارسيّةِ نحوَها؛ وحين أتاحَ لها أَنّ يَقِفَ أسرى بني تميمٍ إلى جانبها في قِتالِ الفُرْسِ، وقد أبلى فُرسانُ تميمٍ في ذي

قار خيرَ بَلاءٍ، حتى حُقّ لجريرٍ، وهو الشاعر التميمي، أَنْ يَفْخَرَ مِنْ بعدُ ببطولتهم في شعره:

منّا فوارسُ ذي بَهْدى وذي نَجَبٍ
والمعلمون صباحاً يومَ ذي قارِ

(الفوارس الذين قاتلوا ببطولة في معركة ذي بهدى باليمامة، وفي معركة ذي نَجَبٍ التي انتصرتْ فيها تميمٌ على بني عامرٍ، والفوارسُ الذين قاتلوا في ذي قار عندَ الصباحِ، وقد أَعْلَمُواْ أنفسَهُم لِيَعْرفَهُم مَنْ يقصدهم، جميعُ هؤلاءِ الفوارسِ هُمْ أبطالٌ مِنْ قبيلةِ تميمٍ، قبيلةِ الشاعرِ جريرٍ). وقد حارب أسرى تميمٍ إلى جانبِ البكريين في ذي قار، برغم ما كان بين تميمٍ وبكرٍ يومَذاكَ مِنْ عداوةٍ مُسْتحكِمَةٍ وحروبٍ متواليةٍ، بدافعٍ من الشعورِ القوميِّ الذي بدأ يستيقظ آنذاك.

وأكبرُ عونٍ قدَّمَهُ الشعورُ القوميُّ إلى البكريين في ذي قار هو تلك الهزيمةُ المدبّرةُ التي نفّذْتَها قبيلةُ إيادٍ عند احتدامِ المعركةِ، فكان لها أثرٌ حاسمٌ في إضعافِ معنوياتِ الجيوشِ الفارسيةِ وهزيمتها، وانتصارِ العرب عليها.

— ٤ —

وعامِلٌ رابعٌ مِنْ عواملِ النَّصْرِ العربيِّ في ذي قار: الإِعْدادُ الكامِلُ لِلمعْركةِ، والتَّخْطِيطُ المَاهِرُ لوقائِعِهَا: فمنذ تلقى هانيءٌ الشيبانيُّ الخبرَ بِتَحرّكِ جموعِ كِسْرَى نحوَ ذي قار، أَرْسَلَ يستدعي قبائلَ بكرٍ لِتَتَجمّعَ على مائِهِ، فلمّا وافتْهُ بدأ رؤساؤها يتدارسون الموقفَ، وعندما حَمَلَ إليهِمُ النُّعمانُ بنُ زرعةَ التغلبيُّ إِنْذارَ الفُرْسِ ومَطَالِبَهُم، وانتهوا إلى الإجماعِ على الحَرْبِ، بدأوا يَسْتطلِعونَ قوةَ الحملةِ الزَّاحفةِ

عليهم، وقد زوَّدَهُم قيسُ بنُ مسعودٍ الشيبانيُّ في زيارتِهِ الليليّةِ السِّريَةِ لهم بما ينبغي أَنْ يعرفوا مِنْ قُوّةِ الخصمِ ونواياه وخططه، وراحوا يستعِدُّونَ و يتجهّزون، و بتوزيعِ أَسْلِحَةِ النُّعمانِ المُودَعَةِ ودروعِهِ الكثيرةِ العَدَدِ، اكتملَ تسلُّحُهُم وقويتْ شوكتُهُمْ.

ومن حُسْنِ إعدادِ البكريين لِلمَعْركةِ تزوّدُهُمْ لها بأكثرِ ما يستطيعون من الماءِ، لمدةِ خمسةَ عَشَرَ يوماً قادِمَةٍ، حَذَراً من نقصِ الماءِ أو احتكارِ خصومِهِم له باستيلائِهِمْ على مَصَادِرِهِ، والوقتُ صَيْفٌ، والقيظُ شديدٌ مُهْلِكٌ في النهارِ، والمؤرخون أشاروا إلى خوفِ الفُرْسِ طَوالَ يوم المعركةِ مِنَ العطشِ، فالكمينُ البكريُّ الذي انقضَّ على مؤخرةِ جيوشِهِم، أتَمَّ حصارَهُم، من جهتي الوادي، وحالَ دونَ وصولِهِم إلى مواطنِ الماءِ، وقد ظلُّوا يحاولونَ فكَّ الحصارِ

لِيَخْلصوا إلى الماءِ، في حين أنّ الماء عند البكريين كثيرٌ موفورٌ.

وكان تخطيطُ البكريين لِلمعركةِ ماهِراً ذكياً: فقد اختارُوا أَنْ يُقابلوا الفُرْسَ على تعبئةٍ مِثْلِ تعبئتِهِم، وتخلّوا عن طريقتهم القبليّةِ في القِتالِ، أو هم جمعوا بين الطريقتين حين وزّعوا جُموعَ قبائلِهِم في قَلْبٍ وجناحين، ووحَّدُوا قياداتِهَا، وقسمّوا الفُرْسانَ إلى كراديس، لِتَسْهلَ حركةُ كُلِّ كردوسٍ منها، ليحولوا دونَ تَعْرِيضِ فرسانِهم مُجْتَمِعين لِنبَالِ الرُّماةِ مِنْ أَساورةِ الفُرْسِ، ويُتيحوا لِبعضِ الكراديسِ أَنْ تُهَاجِمَ الرماةَ، مُسْتَفِيدةً من سرعةِ تحرّكها وتنقّلها، لِتُزحزحَهُمْ عن مواقِعِهم، قبلَ أَنْ يتمكنوا مِنْ إِمْطارِ البكريين بُنشّابهم، ويُصيبوهم إِصابةً بالغةً بِنبالِهِم، والفُرْسانُ الأَساورةُ جيشٌ

مدربٌ يُجيدُ الرَّمْيَ، وهم يتفوّقون على العربِ بهذا السلاحِ، ولكنّ خِطـّةَ البكريين في مُعَاجلةِ الالتحامِ بالأساورةِ، كراديس كراديس مُتَفرِّقَةً، فلّتْ من قوةِ هذا السلاحِ، وقد وجد الأساورةُ أنفسَهُمْ، أمامَ الهجوم الكاسِحِ عليهم والتحام البكريين بهم، مضطرين إلى تَرْكِ أقواسِهم ونبالِهم، والقِتالِ بالرماحِ والسيوفِ، وهي الأسلحةُ التي يجيدُ العربُ استعمالَهَا.

وعندما أَعْطَى حنظلةُ العجليُّ الأمرَ بالهجوم العامّ الكاسحِ بَعْدَ مرحلةِ المُبارزةِ، التحمت كراديسُ الفُرْسانِ البكريين بالجيوشِ الفارسيةِ التحاماً، وانقضّ الكمين البكريُّ على صفوفِهَا الخلفيّةِ، وتمّ حِصَارُ الفُرْسِ وحلفائِهم بين فكّي الكمّاشةِ، وراحتْ سيوفُ البكريين تَحْصِدُهُم مِنْ

كلِّ جانبٍ، وقد أذهلتهمُ المفاجأةُ، واستبدَّ بِهم العطشُ لِشدّةِ الحرِّ وأهوالِ المعركةِ، وخارتْ قوى كثيرٍ منهم، وهنا تأتي الهزيمةُ المُدَبَّرَةُ التي نفذتْهَا قبيلةُ إيادٍ، فيتمُّ تنفيذُ خطة البكريين كما أعدوها ليلاً، و ينهزِمُ الفُرْسُ وحلفاؤهُمْ و يولّون الأدبارَ، والبكريون يطاردونهم، فيقتلون و يأسرون.

لقد كان تخطيط البكريين لِلمعركةِ رائعاً حقاً، يَسْتَفِيدُ مِنْ كُلِّ ما عَرَفَهُ فَنُّ الحربِ حتّى أيامِهِم، مما كان في إمكانهم أَنْ ينتفعوا به، وكُلُّ ذلك مِنْ أسبابِ نَصْرِهِم على الفُرْسِ في ذي قار.

ـ ٥ ـ

وعاملٌ آخر من عواملِ النَّصْرِ العربيِّ في ذي قار تخطيط البكريين أَنْ تكونَ المعركَةُ حَرْباً خَاطِفَةً

فاصِلَةً، تُحَقِّقُ نصراً حاسماً منذ اليوم الأولِ لِلقتالِ، قَبْلَ أَنْ تَضْعُفَ حماسةُ القبائلِ البكرية المواليـةِ، وهم يواجهون جيوشاً مُنَظَّمَةً مُدرّبةً مُعدّة لحربٍ تطولُ أياماً، ولهذا رأينا البكريين لا يُطيلون فَتْرَةَ البِرازِ في بدايةَ المعركةِ، مع أن النصر كان لهم فيها، إذ قتلوا اثنين مِنْ أبطالِ الأسَاورةِ، أحدهما الهامرز أكبرُ القادةِ الفُرْسِ في الحملةِ كُلِّها، وكان مصرعُهُ منذ بدايةِ المعركةِ إرهاصاً (دليلاً) طيّباً بالنَّصرِ العربيِّ، ولكنّ البكريين خَطَّطوا لِلمعْركةِ أنْ تكونَ خاطِفَةً، فأعطى حنظلةُ العجليُّ الأمرَ لهم بالهجوم العاجلِ العامِّ، وتم تنفيذُ الخِطـّةِ على النحو الذي رسموه ليلاً، حتّى لاح النَّصْرُ لبكرٍ على الفُرْسِ، والنهارُ لم يكد ينتصف، بشهادة الأعشى البكريِّ:

وجُنْدُ كسرى غداةَ الحِنْوِ صبحُّهم

منا غطاريفُ تُرجي الموت فَانْصَرَفُوا

إذا أَمَالُوا إلى النُشّابِ أيديَهم

مِلنا ببيضٍ، فَظَلَّ الهامُ يُخْتَطَفُ

وخيلُ بكرٍ فما تَنْفَكُّ تَطْحَنُهُم

حتّى تولوا وكادَ اليومُ يَنْتَصِفُ

(في صبيحةِ يوم المعركةِ في حنْو ذي قار ـ منعطف واديه ـ هاجم جيوشَ كسرى سادةٌ مِنّا غطاريفُ تحمِلُ الموتَ، وكان الفُرْسُ إذا واجهونا بأقواسِهِم ونبالِهِم واجهناهُم بِالسّيوفِ، وهجمنا عليهم، وَرُحْنا نَخْتَطِفُ رُؤوْسَهُم، وفرسانُ بكرٍ تسحقُهُم سَحْقاً، حتى ولّوا الأدبارَ مُنْهَزِمينَ، عند منتصفِ النهارِ تقريباً).

فهي إذاً حربٌ خاطِفَةٌ سريعةٌ، تَمَّ فيها النَّصْرُ

الحاسِمُ على الفُرْسِ بعدَ ساعاتٍ مِن بدايةِ المَعْركةِ، وَإِنْ بقِيَ البكريون يُطاردون فُلولَ المنهزمين حتّى صباحِ اليوم التالي، و يلاحقونهم حتى الحدودِ! وهذا ما جعلَ الرواةَ يزعمون أَنّ مَعْركةَ ذي قار استمرَّتْ يومين، ولو صَحّ زعمُهُم لَظَلّ الحكمُ على المعركةِ بأنها حربٌ خاطفةٌ حكماً سليماً.

— ٦ —

ومِنْ أبرزِ العواملِ في انتصارِ العربِ على الفرسِ في ذي قار ثَبَاتُ البكريين في المعركةِ واستماتَتَهُم في القِتالِ حتى النَّصْرِ، وقد استعدوا لِلموتِ حين سَدُّوا على أنفسِهِم مَنافذَ النجاةِ بالفرارِ، وقطَّعُوا أحزِمَةَ الهوادجِ، فتساقَطَتْ على الأرضِ، بما فيها مِنْ نساءٍ وأطفالٍ، فلم يبقَ أمامَ المحاربين إلاّ الموتُ أو النصرُ. وقامتِ النساءُ البكرياتُ وراءَ رجالهن،

يُثِرْنَ نخوةَ الأبطالِ وشهامَتَهُمْ، ويحرّضن المقاتلين على الصمودِ، وقد حَسَرْنَ عن وجوهِهِنَّ، كما يصفهنَّ الأعشى، وهنّ يشهدن أهوالَ المعركةِ:

وظـعْنُنـا خـلفَنـا كُحلاً مَدَامِعُها
أكـبـادُهـا وجـلاً مـمّـا تـرى تَجِفُ
حـواسرٌ عـن خُـدُودٍ عـايَنَـ عِـبراً
ولا ـهـا وعـلاهـا غـبـرة كـف

(ونساؤنا الظعائنُ قمْنَ خلفَ جموعِنا المحاربةِ، بمدامعهن السود، وأكبادُهُنَّ ترتجفُ مِنَ الأهوالِ التي يُشاهدنها، وقد حَسَرْنَ اللثامَ فبانت منهن الخدود مُغبرَّة مظلمةً، وقد غيّر ألوانَها الحُزنُ والهمُّ والهولُ).

ووقائعُ المعركةِ كما ترويها المصادرُ كُلها تُبْرِزُ صِدْقَ عزيمةِ البكريين في الصمودِ، وإقبالِ أبطالِهِم على الموتِ، وشعارُهُمْ في المعركةِ حدَّدَهُ خطباؤهُمْ:

«الموتُ ولا العارُ ــ المنيّةُ ولا الدنيّةُ» ومِنْ تقطيعِ بني شيبانَ أيديَ أقبيتِهِم لِيَسْهُلَ عليهم تحريكها بالسيوفِ تَبْدُو صورةُ إِصْرَارِهِم على بَذْلِ أقصى طاقَتِهِم في المعركة ليموتوا فيها أو لِيَخْرجوا بالنصرِ منها، فلمّا جاءَ النصرُ، وولّى الفرسُ وحلفاؤهُمُ الأدبارَ، ظَلَّ البكريون وراءَهم يُطاردونَهُم، ليقتلوهم أو يأسروهم، ولمْ يَشْغَلْهُم عنهم طَمَعٌ في الأسْلابِ أو الغنائمِ، ودخلوا وراءَهم أَرْضَ السَّوادِ ليقضوا على فُلولهم، ولِيكونَ انتصارُهُمْ على الفُرْسِ فاصِلاً حاسِماً مُشَرِّفاً، وَصَدَقَ الأعشى حين راح يزعم في فَخْرِهِ بالنَّصْرِ العظيمِ أَنّ الشرفَ الذي أصابَهَ البكريون في ذي قار كبيرٌ جداً، حتى لو أَنّ كُلَّ قبيلةٍ من قبائل مَعَدٍّ شاركتْ في أمجادِ المعركةِ لَظَفِرَ كلُّ رَجُلٍ فيها من أمجادِها بِنَصيبٍ:

لـو أنّ كُـلَّ مَـعَـدٍّ كـان شـاركـنـا
في يـوم ذي قار ما أخطاهُمُ الشَّرَفُ

ـ ٧ ـ

ولا ينبغي لنا ونحن نُحلّل أَهَمَّ عواملِ الانتصارِ العربيِّ في ذي قار أَنْ نهمِلَ الحديثَ عن القيادةِ الماهرةِ المُخْلِصَةِ الحَازِمَةِ التي قادتْ بكراً إلى النصرِ المجيدِ، وأدارتْ سيرَ العملياتِ الحربيةِ إدارةً ذكيّةً، ونفّذت الخطةَ المرسومَةَ بِحِذْقٍ ودِقّةٍ من بِدايةِ المعركةِ حتّى النصرِ:

والحق أن حنظلةَ العجليَّ الذي صارتْ إليه رئاسةُ المعركةِ هو البطلُ العربيُّ الأكبرُ في ذي قار، وهو الذي رَفَضَ الجلاءَ عن الديارِ وَأَصَرّ على الحربِ، وبَثَّ مِنْ روحِهِ القويةِ في نفوسِ البكريين

وقد أصابها الجَزَعُ والخوفُ، فاستردَّتْ عزيمَتَها وعنفوانَها، وتَفجرّتْ طاقاتُها الكامِنَةُ للثباتِ والصمودِ، حتى أجمَعَتْ على القِتالِ.

وحنظلةُ العجليُّ هو الذي أشار بِتوزيعِ أسلحةِ النُّعمانِ ودروعِهِ على المقاتلين، فازدادوا بها قُوّةً، وهو الذي ضَرَبَ لِلبكريين القُدوةَ بِنَفْسِهِ، حين قَطَعَ أحزمةَ هوادجِ النساءِ، مبتدئاً بنسائِهِ و بناتِهِ، وضرب القُبة في بَطْحاءِ ذي قار، لِنَفْسِهِ ولأهلِهِ، وسدَّ كُلَّ مَنْفَذٍ للنجاةِ بِالفرارِ، وما قيمةُ النجاةِ بَعْدَ التخلّي عن الأهلِ والولدِ وتركهم لِلسَّبْيِ والعارِ والعبوديَّةِ!

وحنظلةُ العجليُّ هو الذي نَصَحَ بالمبادرةِ العاجلةِ إلى الهجوم على أساورةِ الفُرْسِ والالتحامِ بهم لِتعطيلِ سلاحِ رمايتهم، ودفعهم إلى القتالِ بالأسلحة التي يُجيدُ العربُ الحربَ بها.

وحنظلةُ العجليُّ هو القائدُ العامُّ الذي ظَلَّ في مقدمةِ الجيشِ، يحاربُ ببطولةٍ فائقةٍ، ويهجم على أشجعِ الفُرْسانِ الأسَاورةِ، وهو الذي قتل خنابزين قائدَ أساورةِ المَيْسَرَةِ الفارسيَّةِ، ففقد الفرسُ بمصرعِهِ بعد مقتلِ قائدِ الميمنةِ الهامَرْز أكبرَ قوّادِهم، فانهارتْ مقاومتُهُمْ، واضطربتْ أمورُهُم، ولمّا تَمْضِ ساعاتٌ قليلةٌ على بدايةِ المعركةِ...

تلك هي شخصيةُ قائدٍ عظيمٍ موهوبٍ حقاً، ووجود قادةٍ من طِرازِهِ بينَ العربِ، دليلٌ على أنَّ ليلَ تمزّقهم الطويل قد انتهى، وأنَّ فَجْرَ وعيهم ووحدتهم أصبح جِدَّ قريبٍ!

إنَّ قيادةَ حنظلةَ العجليِّ الواعيةَ سببٌ مِنْ أسبابِ النصرِ العربي في ذي قار.

جميعُ العواملِ التي رصدناها أسهَمَتْ في صنعِ النصرِ العربيِّ على الفرسِ في ذي قار؛ وبقي عاملٌ كبيرٌ لا يكتمل تحليلنا لأسبابِ النصرِ إلا بإضافتِهِ، وهو جملةُ الأخطاءِ التي ارتكبها الفرسُ فأعانتْ على دَحْرِهم وهزيمتهم، وهي أخطاءٌ كثيرةٌ وكبيرةٌ، وهي في حقيقتها عواملُ الهزيمةِ في الجانبِ الفارسيِّ، وتُمَثِّلُ الوجْهَ المناقِضَ لعواملِ النصرِ العربيِّ التي عددناها:

فالقواتُ البكريّةُ تضم قبائلَ موحّدةً، تجمعها صِلاتُ القُربى والدَّمُ والتاريخُ الأخويُّ المشتركُ والهدفُ الواحدُ، أما القواتُ الفارسيَّةُ فهي تجمُّعٌ لِقواتٍ مُخْتلفةِ الأصولِ، من الفُرْسِ والعربِ، بعضها هزيل الولاء، يتآمر على الحَمْلَةِ ويُدبّرُ لِدَحْرِها، كما فعل قيسُ بنُ مسعودٍ الشيبانيُّ في نَقْلِ

أسرارِ الحملةِ إلى قومِهِ، وكما فعلتْ قبيلةُ إيادٍ في هزيمتِها المدبّرةِ.

والقبائلُ البكرية تخوضُ حرباً دفاعيةً عن وجودها وشرفها وأرضها، والجيوشُ الفارسيةُ غازيَةٌ ومُعْتديةٌ، وَحُلفاؤها مِنَ العربِ الموالين جماعةٌ مِنَ المُرْتَزِقَةِ والمنتفعين والعُملاءِ، وأمثالُ هؤلاءِ لا يصمدون لأهوالِ المعركةِ، وقد وجدناهم في طليعةِ الفارين المنهزمين.

والعجيبُ حقاً أن يَسْتَهْتِرَ الفُرْسُ في تقديرِ أَثَرِ الشعورِ القوميِّ عند العربِ يومَذاكَ، فولّوا قيادةَ الحملةِ عربياً طائياً أخوالُه من بكرِ بنِ وائلٍ، وحشدوا في حملتهم قبائلَ عربيةً مواليةً، وهم لا يضمنون صِدْقَ ولائها، فتآمرتْ إيادٌ على الحملةِ وكانتْ هزيمتُها المدبّرةُ سبباً من أسبابِ هزيمتها؛

وبلغ مِنِ اسْتِخفافِ الفرسِ بالشعورِ القوميِّ عند العربِ أَنْ يضموا إلى الحملةِ واحداً مِنْ زُعماءِ البكريين وهو قيسُ بنُ مسعودٍ الشيبانيُّ، يحسبونَهُ مِن عملائهم، وينتظرون منه أَنْ يَخُوْنَ قومَهُ، ويُعينَ الفرسَ على إبادتهم، دونَ أَنْ يثورَ ضميرُهُ!

لقد كان الفرسُ حتّى معركةِ ذي قار يعدون العربَ قبائلَ بدويَّةً متناحرةً، يمزّقها التنافرُ والأحقادُ، ويحسبون أنَّ في إمكانهم الاستعانَةَ ببعضٍ على إهلاكِ بعضٍ، ولم ينتبهوا إلى أنَّ روحاً جديداً يوشكُ أَنْ يجمعَ هذه القبائلَ المتفرِقةَ، ويُثير فيها الإحساس القومي بالوَحْدَةِ، وقد كان على مَعْركةِ ذي قار أَنْ تلفتَ أنظارَ الفرسِ إلى بدايةِ المرحلةِ الجديدةِ!

ومن استهانةِ الفرسِ بالقوى العربيةِ وطاقاتِها

وقُدراتِهَا أَنّهُم لم يحسنوا الإعدادَ للمعركةِ، وقد تعوّدوا أَنْ يوقعوا بالعربِ ويهزموهم دائماً، ولهذا كان تخطيطـهُـمْ للمعركةِ صورةَ من استخفافهم بالقبائلِ البكرية، فأهملوا دراسةَ مَيْدانِ المعركةِ قبل خوضِها، ولم يستطلعوا قوى البكريين، ولم يحسبوا لِكمينهم حساباً، ولم يعملوا على احتلالِ مصادرِ الماءِ، أو توفيرِ ما هم بحاجةٍ إليه منه، والمعركةُ تجري في أيّامِ الصيفِ، في وَقْدَةِ الحرِّ وشدةِ القيظِ، فأصابَ العطشُ محاربيهم، وكان الظمأ من أسبابِ انهيارِ معنوياتهم في القتالِ.

وحين بدأتِ المعركةُ بمبارزاتِ فرديةٍ، أخطأ الفرسُ في تقديرِ بطولاتِ خصومهم، وكان مَصْرَعُ القائدِ الهامرز في المبارزة أوّلَ ضربةٍ قاصمةٍ لمعنوياتِ أساورتهم، في الساعة الأولى من بداية المعركة.

ولم يستطعِ الفرسُ أنْ يُطيلوا في أَمَدِ المعركةِ ليمتصوا حماسةَ البكريين للقتالِ، وَ يَسْتَنْزِفوا قواهم، و يستفيدوا بعدَ ذلك مِنَ التفاوتِ العَدَدِيِّ بين الفريقين، والهجومُ العامُّ المبكِّرُ الذي انقضَّ البكريون عليهم بِهِ إِثْرَ مَصْرَعِ الهامرز، منهم من أَنْ يَسْتَفِيدوا مِنَ التفاوتِ الكيفي، فتلاحَمَ الطرفانِ، ولم يستطع الأساورةُ اسْتخدامَ أقواسِهم لِلرمايةِ، فلمْ يعدْ لهذا السّلاحِ الذي يتفوّقون فيه على العربِ أَثَرٌ في المَعْرَكَةِ، وكان على الفُرْسِ في تَعْبِئَتِهِم الميدانيةِ لِلقِتالِ أَنْ يحسبوا حساباً دقيقاً لاختِيَارِ مواقعِ الرماةِ، لِيَضْمنوا إغْراقَ خصومِهِمْ بالنُشّابِ قَبْلَ أَنْ يتمكنوا مِنَ التلاحُمِ بِالرُّماةِ الأساورةِ وَيَخْتَلِطُوا بصفوفِهِم. ولهذا كُلِّهِ سارتِ العملياتُ الحربيةُ كما خَطَّط لها البكريون، وانهزمَ الفرسُ في حَرْبٍ خاطفةٍ عند منتصف النهار.

وآخرُ ما نَذْكُرُ من أخطاءِ الفرسِ في ذي قار ــ وما أكثرها ــ ضَعْفُ قياداتِهم وسوء إدارتها: فَالْقائدُ العامُّ إياسُ بنُ قبيصةَ الطائيُّ لمْ يكن له أثرٌ إيجابيٌّ في المعركةِ، وكان في طليعةِ المنهزمين، والعجيبُ حقاً أن يَعْهَدَ كِسْرى إليه بإمارةِ الحَمْلَةِ، وهو الذي يتهمه بالعَصَبيةِ لِلعربِ ــ كما رأينا من قبل ــ وهو يَعْرِفُ أَنّ البكريين هم أخوالُهُ! والقائدُ الهامرز يُغامِرُ مُغَامرةً خَطيرةً عندما يَخْرجُ بنفسِهِ لِلبرازِ، و يُعرّضُ الحملةَ كلّها عند مَصْرعِهِ المبكّرِ لِضَربةٍ قاصِمَةٍ في معنويات جنده الأساورةِ وعزائِمِهم، والقادةُ الآخرون انجلتْ عنهُمُ المعركةُ بين قتيلٍ (مثل خنابزين الفارسي) أو أَسيرٍ جُز ناصيةُ شعره إذلالاً (مثل النعمان بن زرعة التغلبي) أو مُنْهَزِمٍ يرجو النجاةَ لِنفسِهِ بِالفِرارِ (مثل القادة الآخرين).

مثلُ هذه القياداتِ الضعيفَةِ عند مُقَارنتِهَا بِقَادةِ البكريين وإخلاصِهِم ووعيهم وتدبيرِهِمْ يبرزُ الفرقَ بين الطرفين: المغلوبِ والغالبِ، والمنهزم والمنتصر.

خاتمة: بداية عصر عربي جديد!

كان لانْتِصَارِ قبائلِ بكرٍ على الفُرْسِ في ذي قار مَوْجَةُ فرحٍ طاغيةٌ عمّتْ أَرْجاء الجزيرةِ العربيةِ، وَتَناقلتِ القبائلُ الأخرى أَخْبارَ المعركةِ باهتمامٍ، لأنّها انتهتْ بأولِ نَصْرٍ لِلعَرَبِ على الفرسِ. بعد أَنْ كانتْ جيوشُ كِسْرَى دوماً تُوقعُ بالقبائلِ العربيةِ في أيامٍ عَصِيبَةٍ، ينقلُ الرواةُ عَبْرَ الأَجْيالِ أَهْوالَهَا الفظيعَةَ الحزينَةَ، ولهذا عمَّ العَرَبَ شعورٌ جماعيٌّ بعِزَّةِ النصرِ، وعدّوه نَصْراً قومياً، انتقم العربُ لأنفسِهِم فيه من الفُرْسِ، على يدِ بكرٍ وحلفائها، وتلك هي نظرةُ النبيِّ العربيِّ عليه السلام إلى معركةِ ذي قار

كما قدّمنا، وقد أضحتْ أمجادُ النصرِ العظيمِ في ذي قار أكبرَ مِنْ أَنْ تُعدَّ أمجاداً قَبَلِيَّةً خاصة بِبَكْرٍ وبطونِهَا، إِذْ هي في حقيقتِهَا وأثرِهَا أمجادٌ قوميّةٌ، يحق لِلعربِ العدنانيين جميعاً أَنْ يَفْخَرُوا بها، وقد أدرك الأعشى ـ شاعرُ بَكْرٍ الأكبرُ ـ قيمةَ انتصارِ قومِهِ في ذي قار حين قال:

لـو أنَّ كُـلَّ مَـعـدٍّ كـان شـاركـنـا

في يـوم ذي قار ما أخطاهمُ الشرفُ

ذلك أنّ المعركةَ كانت أولى تجاربِ إثباتِ الذاتِ لقُدرةِ العربِ الحربيةِ، أمامَ قواتِ وَاحِدَةٍ مِنْ أعظمِ دولتين في العالمِ يومَذاكَ: قوةً وسلطاناً وتاريخاً وأمجاداً، فَلمّا خَرَجَ العربُ من التجربةِ مُنْتَصِرِينَ، كان عليهم أَنْ يُدْرِكوا أَنَّهُمْ يتخطّون بتارِيْخِهِم عند هذه التجربة بِدايةَ عَصْرٍ جديدٍ.. فَوَحْدَةُ القبائلِ

البكرية في ذي قار، هي مقدمةٌ لِوَحْدَةِ القبائلِ العربيةِ المُرتقبة التي سينبثق عنها وُجُوْدُ أمَّةٍ عربيةٍ واحدةٍ كبيرةٍ، ذاتِ طاقاتٍ ضَخْمَةٍ، دلّ النصرُ في ذي قار عليها، وَأعْرَبَ عنها: بما شهدناه من وَحْدَةِ القبائلِ البكرية، وتماسكها وتضامنها المُحْكَمِ، والتزامها بِالنِّظامِ والطَّاعةِ والانضباطِ، وتوفّرها على قياداتٍ عظيمةٍ موهوبةٍ، أجادتِ التخطيط للمعركة، وَأشْرَفَتْ على سَيْرِ عملياتِهَا بِحَزْمٍ وَذَكاءٍ وَمَهَارَةٍ حتى النصر!

لقد كشف العَرَبُ في ذي قار عَنْ قدراتِهِم الكامنةِ فيهم، وتبدلّتْ نظرةُ الفُرْسِ بعد هزيمتهم في ذي قار إلى العربِ وإلى قُدرتهم القتالية، وهنا تبرزُ أهَمِّيَّةُ المعركةِ: فقد مَهَّدَتِ الطريقَ أمامَ العربِ المجاهدين لإحرازِ انتصاراتٍ كبرى قادمةٍ على

الفُرْسِ، تنتهي بالقضاءِ على ملكهم واستقلالهم.

تلك القُدراتُ الكامنةُ التي دَلَّ عليها النصرُ العربيُّ في ذي قار كانت تنتظر مَنْ يُفجرّها، لِيَنْطلقَ المارِدِ العربيُّ من أغلالِ التخلّفِ والتمزّقِ والوثنيةِ، حاملاً إلى الإنسانِيّةِ كُلِّها رسالةَ الحقِّ والقوةِ والحرّيةِ، مجاهداً في سبيلها، حتى يعمّ العالمَ نورُها الوضاءُ!

لهذا كله:

كان النصرُ العربيُّ في ذي قار بدايةً..

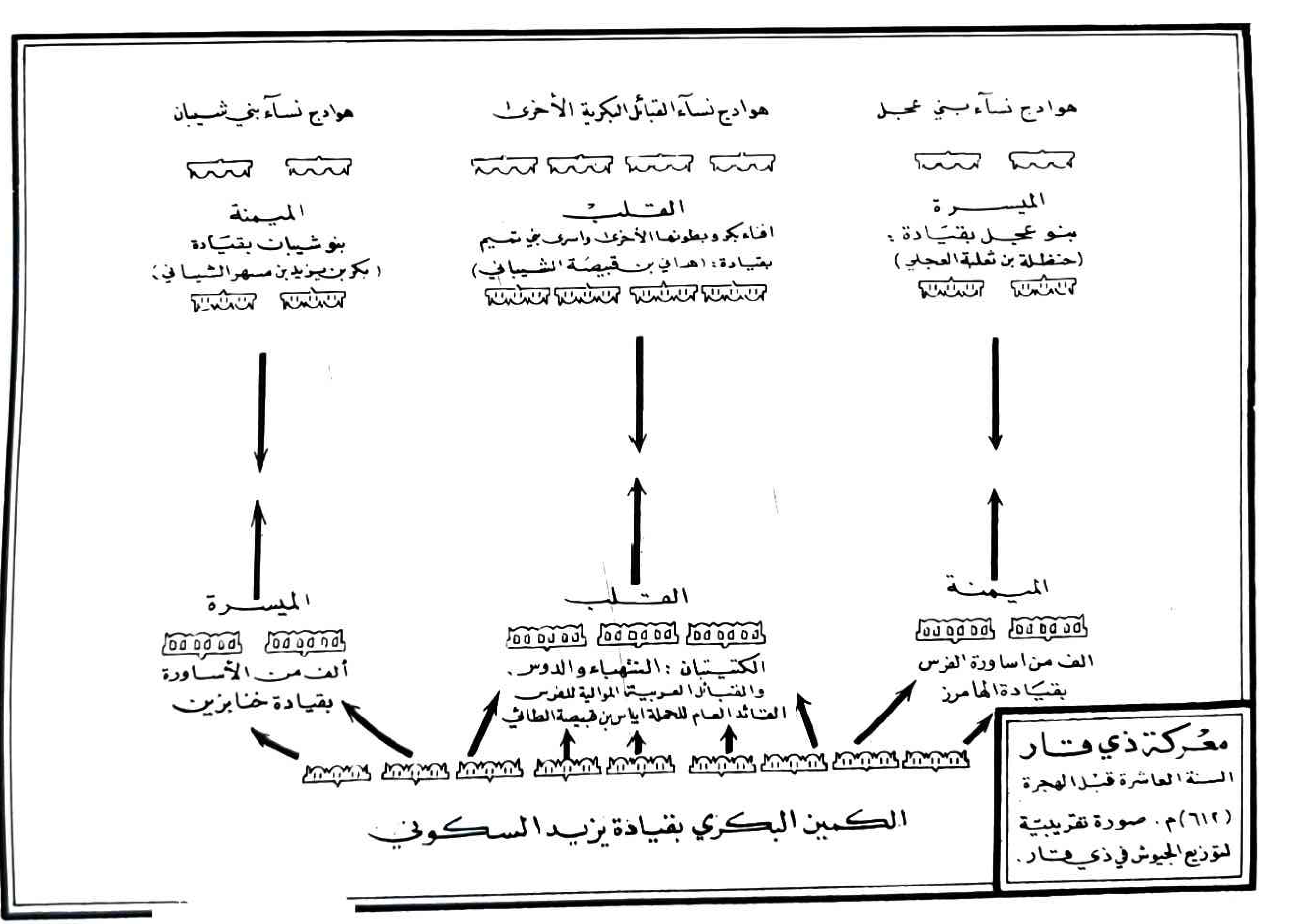
بداية صغيرة لسلسلة من الأمجاد الحربية الكبيرة.

وسنتابع رواية أخبارها في الحلقات القادمة.

المحتوى


نهر دجلة
نهر الفرات
المدائن
(طيسفون)
بلاد فارس
سواد العراق
نهر دجلة
الكوفة
ذو قار
الحيرة
نهر الفرات
شط العرب
الخليج العربي
قبيلة بكر بن وائل
شبه جزيرة العرب
معركة ذي قار
(السنة العاشرة قبل الهجرة)
(٦١٢) م
الجيش العربي
الجيش الفارسي مع
القبائل العربية الموالية له
المقياس





معركة ذي قار
السنة العاشرة قبل الهجرة
(٦١٢)م . صورة تقريبية
لتوزيع الجيوش في ذي قار .
هوادج نساء بني عجل
هوادج نساء القبائل البكرية الأخرى
هوادج نساء بني شيبان
الميسرة
بنو عجل بقيادة : (حنظلة بن ثعلبة العجلي)
القلب
افناء بكر وبطونها الأخرى واسرى بني تميم
بقيادة : (هاني بن قبيصة الشيباني)
الميمنة
بنو شيبان بقيادة
(بكر بن يزيد بن مسهر الشيباني)
الميمنة
الف من اساورة الفرس
بقيادة الهامرز
القلب
الكتيبتان : الشهباء والدوس ،
والقبائل العربية الموالية للفرس
القائد العام للحملة اياس بن قبيصة الطائي
الميسرة
ألف من الأساورة
بقيادة خنابزين
الكمين البكري بقيادة يزيد السكوني



معارك حربية حاسمة

عربية وإسلامية

شارك في تحرير هذه السلسلة
الدكتور صالح الأشتر
والاستاذ محمد الانطاكي
واشرف على إصدارها
الدكتور صالح الأشتر

سلسلة في عشر حلقات تعرض صوراً تحليلية مجيدة من تاريخنا الحافل بالبطولات
من الجاهلية إلى القرن الهجري الثالث.

١- معركة ذي قار ٢- معركة بدر الكبرى ٣- معركة أحد ٤- معركة اليمامة
٥- معركة اليرموك ٦- معركة القادسية ٧- معركة نهاوند ٨- معركة وادي لكة
٩- معركة بلاط الشهداء ١٠- معركة عمورية

سلسلة تعلمنا أن النصر لا يحققه الا القادرون على
الموت في سبيله

المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية
حلب - المسلمية - المنطقة الحرة -